طريقك إلى الاستمتاع بالقرآن

(دراسة موضوعية لألفاظ التلاوة والتدبر والترتيل في الكتاب العزيز)



د. عبد الرحمن بن محمد البرادعي

قسم الدراسات القرآنية بجامعة أم القرى / كلية المعلمين (سابقًا)

الناشر

دار طيبة الخضراء

مكة المكرمة — الرياض

٠٥٤٤٥٩٩١٠٠

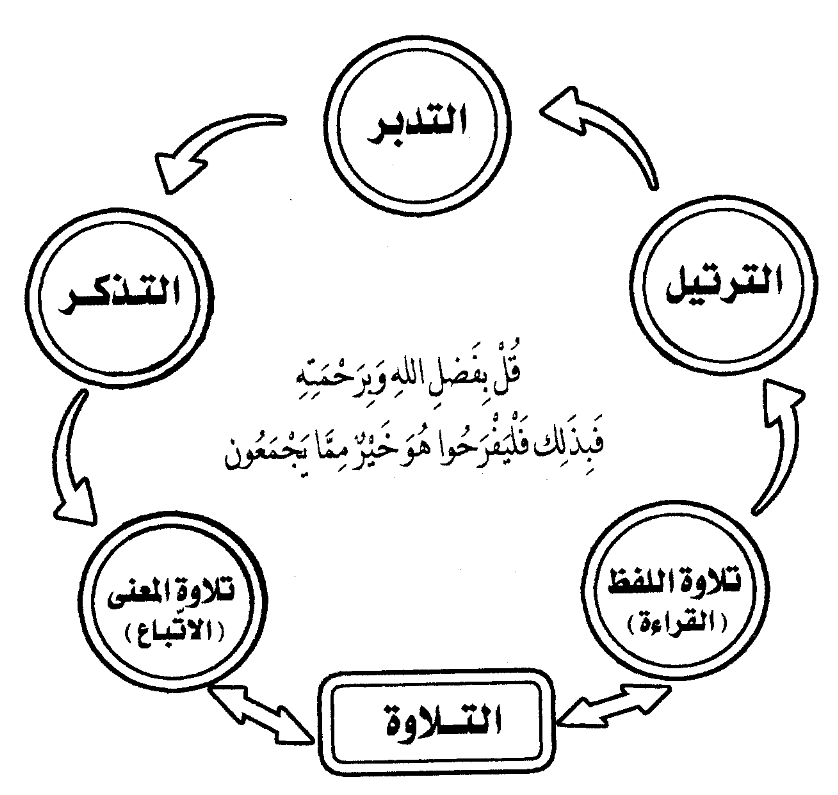
٠٥٠٤٥١٢٤٤٧

طريقك إلى الاستمتاع بالقرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

طريقك إلى الاستمتاع بالقرآن

(دراسة موضوعية لألفاظ التلاوة والتدبر والترتيل في الكتاب العزيز)



د. عبد الرحمن بن محمد البرادعي

قسم الدراسات القرآنية بجامعة أم القرى / كلية المعلمين (سابقًا)

الناشر

دار طيبة الخضراء

مكة المكرمة — الرياض

٠٥٤٤٥٩٩١٠٠

٠٥٠٤٥١٢٤٤٧

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

الناشر دار طيبة الخضراء

للنشر والتوزيع - مكة المكرمة

جوال: ٠٥٤٤٥٩٩١٠٠ - ٠٥٤٥١٢٤٤٧

مكة المكرمة - العزيزية - بجوار جامعة أم القرى

المدينة المنورة - بجوار الجامعة الإسلامية

الرياض - شارع السويدي

ت: ٥٥٨٩٠٢٧ - ٥٥٨٩٧٨٠

تمهيد
الفرح بالقرآن

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على السراج المنير، وعلى آله وصحبه والتابعين، وبعد:

فإن القرآن الكريم سبيل المؤمنين إلى ربهم سبحانه، ودليلهم إلى العلم به ومعرفته جل شأنه، لا طريق لهم إلى رضاه سواه، ولا نجاة لهم بغيره ولا فلاح.

في مجالسته الأنس والابتهاج، وفي مدارسته مضاعفة الحسنات، تعلمه عبادة، والاعتصام به هداية، واتباعه فوز وبركة وسعادة.

بالتزامه تتعظ النفوس، وتنشرح الصدور، وتطمئن القلوب، وتحيا الأفئدة، وتزول الأهواء والشبهات والشكوك.

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.[المائدة: ١٥، ١٦]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾. [النساء: ١٧٤]

والنور المبين هو القرآن[1]، سماه الله نورا، لأنه يتضمن العلم الذي

---

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج ٢/١٣٦، تفسير السمعاني ١/٥٠٧، تفسير البغوي ١/٥٠٣، تفسير ابن عطية ٢/١٤١، زاد المسير ٢/٢٢٧، تفسير القرطبي ٦/١٩.

يستنير به القلب، ويتحرر من ظلمات الضلال والحيرة.

وسماه الله روحا، فقال تبارك اسمه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾. [الشورى:٥٢].

وهو تقرير إلهي بأن القرآن سبب في حياة القلوب ونورها، يوجب لها الاهتداء والأنس والحبور.

إن المؤمن حين تصفو نيته، ويخلص عزمه في الاتصال بالقرآن، فإن آياته البينات تهديه سواء السبيل، وتضيء له معالم الطريق: (فتريه الحق حقا، والباطل باطلا، وتعطيه فرقانا ونورا، يفرق به بين الهدى والضلال، والغي والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه، وحياة وسعة وانشراحا، وبهجة وسرورا)[١].

وفي هذا المعنى أيضا يقول الله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾.[الرعد:٢٨].

والقرآن أفضل الذكر وأعلاه[٢]، به تسكن القلوب وتطمئن، وتنتفي عنها الوحشة ويزول الاضطراب، وتفيض عليها مشاعر النعيم واللذة، حين يتعلق المؤمن بكلام ربه جل شأنه، عن إيمان ويقين، وانقياد وقبول، ويتعظ بما يشتمل عليه من أسباب الهداية، فيقيه من ظلمة الأهواء، ويعصمه من حيرة الشكوك والريبة.

---

(١) مدارج السالكين ٣٤٣/١، وانظر: ١/ ٣٦٦. ٣٦٨، ١٩٩/٣.

(٢) انظر: الأذكار ص ٨٧، التبيان ص ١٩، التذكار ص ٣٨، الوابل الصيب ص ١٦٨.

ولذا قال الحسن البصري: (تفقدوا الحلاوة في الصلاة، وفي القرآن، وفي الذكر، فإن وجدتموها فامضوا وأبشروا، وإن لم تجدوها فاعلموا أن الباب مغلق).[١]

وفي حديث ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ما أصاب أحدًا قط همٌّ ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هولك، سميت به نفسك، أو علمته أحدا من خلقك[٢]، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري[٣]، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحا)، فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلمها، فقال: (بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها).[٤]

---

(١) حلية الأولياء ١٤٦/١٠، وانظر: شعب الإيمان ٤٤٧/٥ ط دار الكتب، الرسالة القشيرية ص ٣١٥، مدارج السالكين ٣٣٧/٢.

(٢) اعتبر ابن القيم العطف هنا: (أو علمته) من باب عطف الخاص على العام. انظر: شفاء العليل ص ٥١٣.

(٣) هذان الوصفان: ربيع القلب، ونور الصدر، يجمعان. كما ذكر ابن القيم. أصلين: الحياة والنور، فإن الربيع هو المطر الذي يحيي الأرض، فينبت الزرع، فيسأل العبد ربه بعبوديته وتوحيده وأسمائه وصفاته، أن يجعل القرآن حياة لقلبه، بمنزلة الماء الذي يحيي به الأرض، ونورا له، بمنزلة الشمس التي تستنير بها الأرض، والحياة والنور جماع الخير كله. شفاء العليل ص ٥١٥، وانظر: النهاية في غريب الحديث ١٨٨/٢، الفوائد ص ٣٧. ٣٨، بلوغ الأماني ٢٦٣/١٤.

(٤) رواه أحمد في المسند ٣٩١/١، والحاكم في المستدرك ٦٩٠/١، قال الهيثمي في مجمع الزوائد =

فهذا الحديث الشريف يؤكد أن القرآن العظيم مصدر الحياة والنور، وموئل الانشراح والسرور، ومبعث السعادة والطمأنينة والسكون.

وقد أخبرنا الله جل شأنه أن القرآن الكريم: تلاوة وفهما وقبولا، هو الموعظة للنفوس، والشفاء للقلوب: يداويها من عللها، ويعالجها من أسقامها، ويهديها بنوره من العمى والجهالة، فلا تتأثر بالشبهة، ولا تتدنس بالمنكر من الشهوة، وحينئذ يذوق المؤمن لذة الهداية، وطعم الإيمان، وحلاوة اليقين.

يقول الله جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾. [يونس: ٥٧، ٥٨].

وفي هذه الآية الأخيرة أمر وتوجيه للمؤمنين، بأن تستشعر قلوبهم الفرح واللذة والنعيم، بإدراكهم هذا المحبوب الجليل، ونيلهم ذلك المطلوب العظيم، الذي هو أولى وأحق ما يفرح به العبد: فضل الله ورحمته، باعتبار ذلك خيرا مما يجمع الناس من زينة الحياة الدنيا.

يقول العز بن عبد السلام: (يشرف الفرح بشرف المفروح به، فالفرح

=

١٠/١٩٦: (رواه أحمد، وأبو يعلى، والبزار إلا أنه قال: (وذهاب غمي) مكان (همي)، والطبراني، ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني، وقد وثقه ابن حبان)، وصححه ابن القيم في شفاء العليل ص ٥٠٩، والألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة ص ٥٣٥.

بفضل الله ورحمته في أفضل رتب الفرح).[1]

ومع عموم دائرة الفضل الإلهي والرحمة الربانية وشموليتهما في الآية الكريمة[2]، إلا أن الكتاب العزيز يبقى - بلا ريب - من أعظم نعم الله جل شأنه على عباده، ولذا فهو أجل وأجدر ما ينبغي أن يفرح به المؤمنون.

ولذا اختار ابن جرير وغيره تفسير الفضل والرحمة هنا بالإسلام والقرآن[3]، مستندا إلى جملة من الآثار المروية عن عدد من الصحابة والتابعين.

ومنها[4] ما رواه ابن جرير وغيره عن ابن عباس ﷺ في الآية قال: (فضله الإسلام، ورحمته القرآن).

قال ابن القيم: (والتحقيق أن كلا منهما فيه الوصفان: الفضل والرحمة).[5]

وعن مجاهد: ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ ﴾ قال: (القرآن).

---

(١) شجرة المعارف ص ٨١، وانظر: رياضة النفس ص٤٢ - ٤٥، مجموع الفتاوى ١٦/٤٩، ٣/١٢٢ - ١٢٣.

(٢) انظر: تفسير ابن عطية ٧/١٦٨، التسهيل ٢/٩٥، فتح القدير ٢/٤٥٤، روح المعاني ١١/١٤١، تفسير المنار ١١/٤٠٥ - ٤٠٦، تفسير ابن عاشور ١١/٢٠٥، إغاثة اللهفان ٢/٨٩٨.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١١/١٢٤، تفسير المشكل ص ١٠٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري ١١/١٢٤ - ١٢٦، فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٤، مصنف ابن أبي شيبة ١٥/٤٨٥، شرح السنة ٤/٤٢٦، شعب الإيمان ٥/٥٦ - ٥٩، الدر المنثور ٤/٣٦٧.

(٥) إغاثة اللهفان ١/٧٨.

وعن أبي سعيد الخدري ؓ. وهو مروي أيضا عن ابن عباس ؓ: (﴿ بِفَضْلِ اللَّهِ ﴾: القرآن، ﴿ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾: حين جعلهم من أهل القرآن).

والمراد أن من ثمرات رحمته جل وعلا: توفيقهم لإجابة القرآن ومحبته وتعظيمه، وهدايتهم لاتباعه والتزام منهاجه، وإعانتهم على الانقياد لأمره ونهيه.

قال ابن القيم: (يريد بذلك أن هنا أمرين:

أحدهما: الفضل في نفسه.

والثاني: استعداد المحل لقبوله، كالغيث يقع على الأرض القابلة للنبات.

فيتم المقصود بالفضل، وقبول المحل له).(١)

ولهذا الاعتبار عنون البيهقي في باب تعظيم القرآن من كتابه شعب الإيمان(٢)، فقال: (فصل في التكثير بالقرآن والفرح به)، ضمنه الآية الكريمة، ونقل في مقدمة الباب عن شيخه الحليمي: أن من وجوه تعظيم القرآن في حس المسلم وشعوره: (أن يفرح بما آتاه الله من القرآن، فرح الغني بغناه، وذي السلطان بسلطانه، ويستعظم نعمة الله تعالى عليه به، ويحمده عز اسمه عليه).(٣)

هذا الفرح بالقرآن والأنس به، سمة من سمات أهل الإيمان، كما تقرر

(١) مدارج السالكين ٣/١٢٢ - ١٢٣.
(٢) شعب الإيمان ٥/٥٢.
(٣) شعب الإيمان ٤/١١٠.

الآية الكريمة: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾. [التوبة: ١٢٤].

والاستبشار بمعنى السرور والفرح (١)، يعلو قلوب المؤمنين، كلما تنزلت على نبيهم ﷺ جملة آيات من القرآن الكريم.

ولقد كانت غاية هذا النزول القرآني، تتمثل في تحقيق معنى العبودية لله تبارك وتعالى: بتلاوة كلامه، وترتيل كتابه، وتفهم آياته، والتذكر بمواعظه، والاستسلام لأمره، واتباع شرعه ومنهاجه.

ولذا كان هذا البحث معنيا ـ بعون الله سبحانه ـ بدراسة ثلاثة ألفاظ قرآنية: التلاوة.. والترتيل.. والتدبر، ذات العلاقة الوثيقة بتلك الغاية الجليلة، وذلك بهدف كشف مدلولات كل لفظ، وبيان المراد منه في سياق الآيات المشتملة عليه، ثم تأمل العلاقة بين تلك المفاهيم، وإبراز مقاصدها المتصلة بالكتاب العزيز.

وفيه أربعة فصول:

يتناول الأول منها لفظ التلاوة.

والثاني لفظ الترتيل.

والثالث لفظ التدبر.

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/٩٩، تفسير السمعاني ٢/٣٦١، تفسير الواحدي ١/٤٨٧، تفسير البغوي ٢/٣٤٠، زاد المسير ٣/٣٥٢، المفردات ص ٥٨.

بينما يتناول الفصل الرابع العلاقة الإيمانية، التي تنتظم تلك الحلقات وتجمع بينها، من خلال أربعة مباحث:

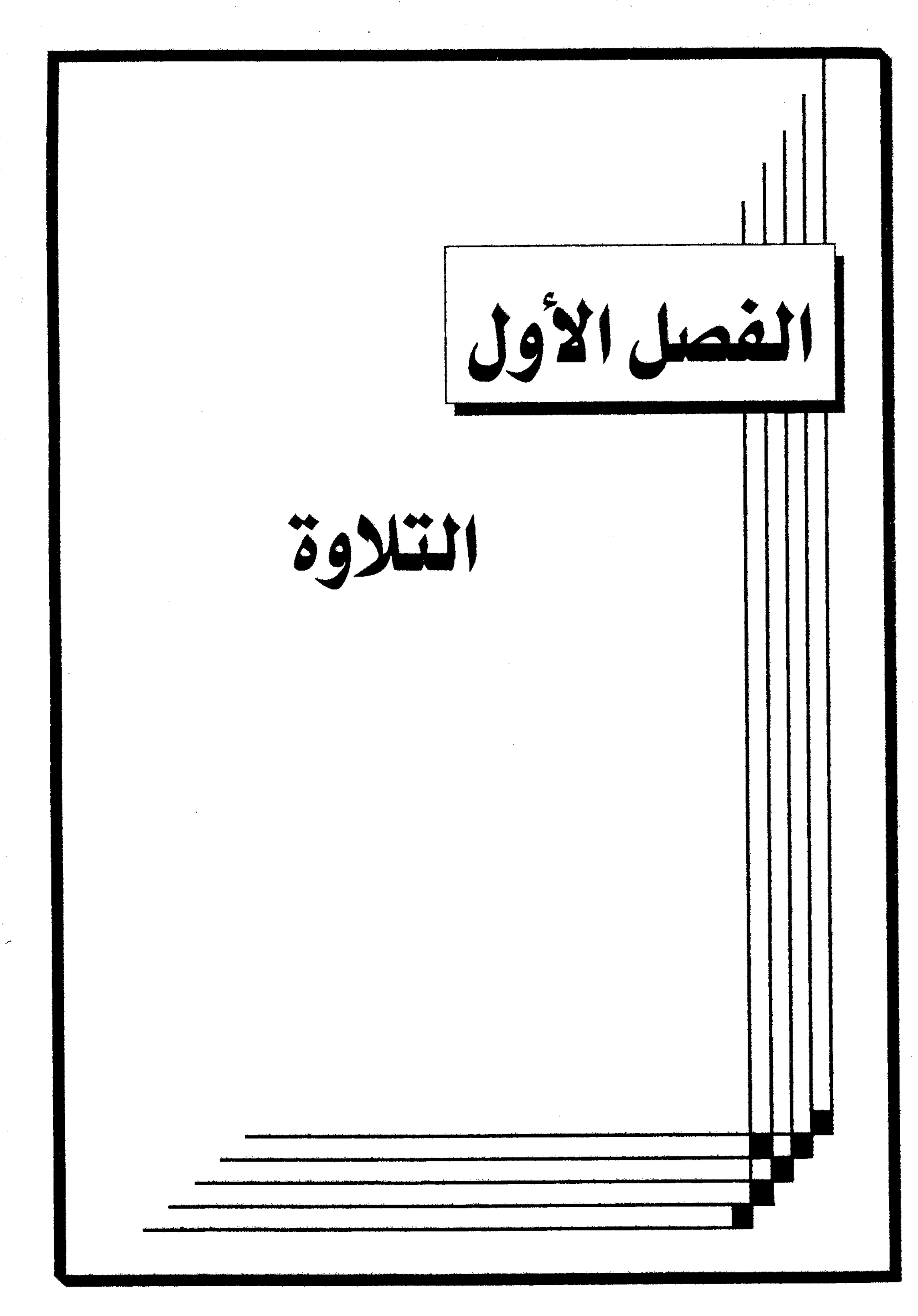
الأول: تلاوة اللفظ القرآني عبادة.

الثاني: الترتيل وصف للتلاوة.

الثالث: التدبر مطلوب ومقصد.

الرابع: تلاوة المعنى هي الغاية.

أسأل الله تبارك وتعالى التوفيق والإعانة، والعفو والقبول، وصلى الله وسلم على الرسول الأمين، سيد الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه والتابعين..



التلاوة. بكسر التاء. مصدر للفعل (تلا. يتلو).

ولهذا الفعل في اللغة معان أبرزها ما يلي:

◆ يرد لفظ (تلا) بمعنى تبع.

ومن ذلك: (تلوت الشيء تُلُوًّا، أي: تبعته. وتتالت الأمور، أي: تبع بعضها بعضا. وجاءت الخيل تتاليا، أي: متتابعة. وهذا تِلْوُ هذا، أي: تبعه. والتالي، أي: التابع. وأتليته إياه، أي: أتبعته.)[١]

وهذا المعنى هو الأصل الذي تعود إليه بقية المعاني.

قال ابن فارس: (التاء واللام والواو أصل واحد، وهو الاتباع).[٢]

وقال الزجاج: (معنى يتلون في اللغة: يتبعون بعض الشيء بعضا، وقد استتلاك الشيء: إذا جعلك تتبعه).[٣]

وهذا المعنى يتناول الاتباع الحسي بالجسد، كما يتناول الاتباع بالمحاكاة والتأسي والاقتداء، ومنه: (فلان يتلو فلانا، أي: يحكيه ويتبع فعله).[٤]

• كما يرد لفظ (تلا) بمعنى: ترك وتخلف.

ومنه: (تلوته، أي: تركته وخذلته. وتلا الرجل، إذا تأخر وتخلف.

---

(١) جمهرة اللغة ٢/٢٩، تهذيب اللغة ١٤/٣١٧، ترتيب القاموس ١/٣٧٧، لسان العرب ١/٤٤٣ - ٤٤٤.

(٢) مقاييس اللغة ص ١٥٦، وانظر: مفتاح دار السعادة ١/٥٥.

(٣) معاني القرآن ١/٤٥٩.

(٤) لسان العرب ١/٣٤٤، وانظر: تاج العروس ١٠/٥٣.

وتلا عني، أي: تركني وتخلف عني.)[١]

وهذا المعنى مقابل للمعنى السابق وضد له، غير أن التأمل يكشف سيره في ذات الاتجاه وعوده إليه، فكأن أحدهما ـ في العبارات السالفة ـ تبع الآخر، حتى جاوزه وتركه، ولذا كان من قولهم: (ما زلت أتلوه حتى أتليته، أي: سبقته وأخرته.)[٢]

يقول ابن فارس: (فأما قوله: تلوت الرجل أتلوه تلوا، إذا خذلته وتركته، فإن كان صحيحا فهو القياس، لأنه مصاحبه ومعه، فإذا انقطع عنه وتركه فقد صار خلفه بمنزلة التالي).[٣]

• ويرد لفظ (تلا) كذلك بمعنى: قرأ، وذلك في حال تعديته إلى الكلام عامة، أو كلام الله جل وعلا خاصة.

قال ابن منظور: (تلوت القرآن تلاوة: قرأته، وعم به بعضهم كل كلام).[٤]

فالتلاوة والقراءة ـ بهذا المعنى ـ مترادفان، يفسر أحدهما الآخر، ولذا قال صاحب القاموس في مادة (قرأ): (قرأه قَرْءًا وقراءة وقرآنا: تلاه).[٥]

لكن هذا المعنى أيضا مرتبط بمعنى الاتباع، وذلك باعتبار أن القارئ

---

(١) تهذيب اللغة ١/٣١٧ـ٣١٨، ترتيب القاموس ١/٣٧٧، لسان العرب ١/٤٤٣ـ٤٤٤.
(٢) تهذيب اللغة ١/٣١٨، لسان العرب ١/٤٤٤.
(٣) مقاييس اللغة ص ١٥٦.
(٤) لسان العرب ١/٣٤٤، وانظر: تاج العروس ١٠/٥٣، ترتيب القاموس ١/٣٧٧.
(٥) ترتيب القاموس ٣/٥٧٨.

يتبع الحروف والألفاظ.

ولذا قال ابن فارس بعد ذكر أصل المعنى وهو الاتباع: (ومنه: تلاوة القرآن، لأنه يتبع آية بعد آية).[١]

وقال ابن دريد: (وتلوت القرآن: إذا قرأته، كأنك أتبعت آية في إثر آية).[٢]

وقال الأزهري: (والقارئ تال، لأنه يتبع ما يقرأ).[٣]

وعلى هذا فالأصل اللغوي لهذا اللفظ يدور حول معنى الاتباع، وهو ما أورده كذلك أهل التفسير، في سياق بيانهم لمعانيه في الكتاب العزيز.

قال الراغب: (تلا: تبعه متابعة ليس بينهما ما ليس منهما، وذلك يكون تارة بالجسم، وتارة بالاقتداء في الحكم، وتارة بالقراءة أو تدبر المعنى).[٤]

فلما كان عماد القراءة متابعة الحروف والألفاظ سميت تلاوة.

يقول القرطبي: (أصل التلاوة الاتباع، ولذلك استعمل في القراءة، لأنه يتبع بعض الكلام ببعض حتى يأتي على نسقه).[٥]

ويقول ابن القيم: (سمي تالي الكلام تاليا، لأنه يتبع بعض الحروف

---

(١) مقاييس اللغة ص ١٥٦.
(٢) جمهرة اللغة ٢/٢٩.
(٣) تهذيب اللغة ١٤/٣١٧، وانظر: جمال القراء ١/٩١.
(٤) المفردات ص ٧٥.
(٥) تفسير القرطبي ١/٢٥١، وانظر: تفسير الفخر الرازي ٨/٢٠١، فتح القدير ١/٧٧.

بعضا، لا يخرجها جملة واحدة، بل يتبع بعضها بعضا مرتبة، كلما انقضى حرف أو كلمة أتبعه بحرف آخر وكلمة أخرى).(١)

والعبارة السالفة لابن منظور: (وعم به بعضهم كل كلام) تشير إلى أن بعض أهل اللغة والتفسير يعتبرون لفظ التلاوة مصطلحا خاصا بقراءة الكتاب العزيز، لا يسوغ إطلاقه على قراءة ما سواه.

ومن هؤلاء الراغب، إذ يرى أن استعمال هذا اللفظ مختص بكلام الله جل شأنه، بحيث يتضمن معنى القراءة، كما يتضمن في ذات الوقت معنى الاستجابة والامتثال.

يقول الراغب: (والتلاوة تختص باتباع كتب الله المنزلة، تارة بالقراءة، وتارة بالارتسام(٢) لما فيها من أمر ونهي وترغيب وترهيب أو ما يتوهم فيه ذلك، وهو أخص من القراءة، فكل تلاوة قراءة، وليس كل قراءة تلاوة، لا يقال: تلوت رقعتك، وإنما يقال في القرآن في شيء إذا قرأته وجب عليك اتباعه).(٣)

والمقصود أن تلاوة القرآن لدى الإطلاق لا تعني مجرد القراءة فقط، لكنها تتعداه لتشمل معنى الاتباع للمقروء، والالتزام بمضمون المتلو من كلام الله سبحانه.

يقول ابن تيمية في سياق حديثه عن اختلاف دلالات الأسماء، بحسب

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/٥٥، وانظر: البحر المحيط ٣/٢٦، ٤/٢٤٩.
(٢) أي: الامتثال. انظر: لسان العرب ٣/١٦٤٧.
(٣) المفردات ص ٧٥.

الإطلاق والتقييد، والتجريد والاقتران: (وكذلك لفظ التلاوة، فإنها إذا أطلقت في مثل قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ تناولت العمل به، كما فسره بذلك الصحابة والتابعون).(١)

وقد ورد مفهوم التلاوة في الكتاب العزيز ضمن إحدى وستين آية، كلها تضمنت لفظ الفعل بصيغه المتعددة، عدا آية واحدة جمعت بين الفعل ومصدره، وهي قول الله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ [البقرة: ١٢١].

ولا تخرج أقوال أهل التفسير في بيان المراد باللفظ في تلك الآيات الكريمات عن ثلاثة معان:

الأول: القراءة.

الثاني: الإخبار (القصص.. الرواية.. التبليغ).

الثالث: الاتباع (العمل).

وقد تتعدد أقوال المفسرين، وقد تختلف عباراتهم في الآية الواحدة،

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/١٦٧، وانظر: تفسير السعدي ٤/٦٣.
وقد يطلق المصدر: (التلاوة)، ويراد به المفعول، أي: المتلو من كلام الله سبحانه.
يقول ابن القيم:

وتلاوة القرآن في تعريفها ... باللام قد يعنى به شيئان
يعنى به المتلو فهو كلامه ... هو غير مخلوق كذي الأكوان
ويراد أفعال العباد كصوتهم ... وأدائهم وكلاهما خلقان

انظر: مجموع الفتاوى ١٦/٣٩٠.٣٩١، ١٧/٣٤.٣٨، شرح القصيدة النونية ١/١٤١.١٤٤.

غير أن ذلك الاختلاف ـ في الغالب ـ هو مما يحتمله اختلاف التنوع، ضمن دوائر الترادف والتقارب والتلازم، مرجعه إلى الاشتراك اللفظي[1]، وإلى السياق القرآني، وبناء عليه يتجه المفسر إلى ترجيح معنى، واختيار العبارة الملائمة للتعبير عنه.

وفيما يلي أربعة مباحث، استقل كل مبحث منها بمعنى من المعاني الثلاثة الآنفة الذكر، واستقل الرابع ببيان المقصود بحق التلاوة، الذي اختصت به آية سورة البقرة.

(١) الاشتراك اللفظي هو الجمع بين المعاني المختلفة في لفظة واحدة. انظر: اختلاف المفسرين ص ٩٩.

المبحث الأول

التلاوة بمعنى القراءة

هذا المعنى هو الأكثر استعمالا في القرآن الكريم، وبه فسر علماء التفسير لفظ (التلاوة) في أربعين آية من الكتاب العزيز.

وقصدا للإيجاز، كان الاكتفاء هنا بإيراد جملة من الآيات، بحيث تكون ممثلة لآيات أخرى مقاربة لها في معناها وموضوعها وسياقها القرآني:

• يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾. [يونس: ١٥].

لفظ التلاوة في هذه الآية ومثيلاتها بمعنى القراءة، أي: تقرأ على المشركين آيات الكتاب العزيز.[1]

• ويقول تعالى: ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ ﴾. [القصص: ٥٣].

قال القرطبي: (أي: إذا قرئ عليهم القرآن).[2]، والمقصود مؤمنو أهل الكتاب ﷺ.

• ويقول تعالى: ﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴾. [الصافات: ٣].

(١) انظر: تفسير الطبري ١١/٩٤.
(٢) تفسير القرطبي ١٣/١٩٦.

أي: القارئات، من التلاوة بمعنى القراءة، وقد ذكر جمع من أهل التفسير أن المقصود الملائكة عليهم السلام، قال البغوي: (هم الملائكة يتلون ذكر الله ﷻ)، وهو مروي عن ابن مسعود رضي الله عنه ومجاهد وغيرهما.[١]

• ويقول تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾. [العنكبوت: ٤٨].

قال البغوي: (يعني: لم تكن تقرأ ولا تكتب قبل الوحي).[٢]، والخطاب لرسولنا ﷺ.

• ويقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾. [الجمعة: ٢].

قال الزمخشري: (يقرؤها عليهم).[٣]

• ويقول تعالى: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾. [البينة: ٢].

أي: يقرأ، والمراد ما تتضمنه الصحف من المكتوب فيها، وهو القرآن، لأنه كان ﷺ يقرأ من حفظه لا من كتاب.[٤]

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٢٣/٣٤، تفسير مجاهد ٢/٥٣٩، تفسير ابن أبي حاتم ١٠/٣٢٠٤، تفسير البغوي ٤/٢٢، تفسير ابن عطية ١٢/٣٣٣، تفسير القرطبي ١٥/٤٢ .٤٣، تفسير ابن كثير ٤/٢، الدر المنثور ٧/٧٨، فتح القدير ٤/٣٨٦.

(٢) تفسير البغوي ٣/٤٧١.

(٣) تفسير الزمخشري ٤/٥٣٠، وانظر: تفسير الطبري ٤/١٦٣، ٢٨/٩٤، تفسير القرطبي ٤/١٦٩.

(٤) انظر: تفسير الطبري ٣٠/٢٦٣، تفسير البغوي ٤/٥١٣، زاد المسير ٨/٢٨٩، تفسير القرطبي ٢٠/٩٦.

• ويقول تعالى: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾. [المائدة: ١].

قال القرطبي: (أي: ما يقرأ عليكم في القرآن والسنة).[١]

إن تفسير لفظ التلاوة في هذا القسم بالقراءة ظاهر، ولا يكاد يختلف فيه أهل التفسير، باستثناء آيات قليلة اختلف فيها تحديدهم للمعنى أو تعبيرهم عنه.

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾. [الرعد: ٣٠].

فلفظ التلاوة هنا بمعنى القراءة، أي: لتقرأ عليهم ما يتنزل عليك من القرآن العظيم، والخطاب لرسولنا ﷺ.[٢]

غير أن ابن جرير فسر فعل التلاوة هنا بالتبليغ، فقال في معنى الآية: (لتبلغهم ما أرسلتك به إليهم من وحيي الذي أوحيته إليك).[٣]

والقراءة والتبليغ متلازمان، ومآلها في معنى الآية واحد.

ومن ذلك أيضا قول الله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾. [البقرة: ٤].

---

(١) تفسير القرطبي ٦/٢٥، وانظر: تفسير الواحدي ١/٣٠٦.

(٢) انظر: تفسير البغوي ٣/١٩، تفسير الزمخشري ٢/٥٢٩، تفسير الفخر الرازي ١٩/٥١، البحر المحيط ٥/٣٩٠.

(٣) تفسير الطبري ١٣/١٥٠، وانظر: تفسير ابن كثير ٢/٥١٤.

والخطاب في هذه الآية لليهود، والمراد بالكتاب التوراة[١]، ثم يعم التوبيخ من شابههم، كما قرر القرطبي وغيره.[٢]

قال البغوي في معنى ﴿تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾: (تقرؤون التوراة، فيها نعته وصفته ﷺ).[٣]

وقال الشوكاني: (التلاوة: القراءة، وهي المراد هنا).[٤]

لكن ابن عطية احتمل في اللفظ هنا معنى الاتباع، فقال في تفسير الآية: (معناه تدرسون وتقرؤون، ويحتمل أن يكون المعنى: تتبعون).[٥]

وذلك باعتبار أن اللفظ في دائرته اللغوية يحتمل المعنيين: القراءة والاتباع.

---

(١) وهذا القول عزاه ابن الجوزي في زاد المسير ٦٢/١ إلى جمهور المفسرين، والقول الثاني: أن المراد بالكتاب القرآن، وعليه فلا يكون الخطاب لليهود.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ٢٥١/١، تفسير السعدي ٥٧/١.

(٣) تفسير البغوي ٦٨/١، وانظر: تفسير الطبري ٢٥٩/١، تفسير الواحدي ١٠٣/١، تفسير القرطبي ٢٥١/١.

(٤) فتح القدير ٧٧/١، وانظر: تفسير الفخر الرازي ٥٢/٣.

(٥) تفسير ابن عطية ٢٧٦/١.

المبحث الثاني

التلاوة بمعنى القصص والإخبار

وهذا المعنى مقارب لمعنى القراءة، متصل به بشكل وثيق، ولذا يتزاوجان ضمن كلام المفسرين. أحيانا. في الآية الواحدة.

ذلك أن التلاوة بهذا المعنى مشمولة بباب القول، كما قرر الزجاج وغيره[١]، وذلك يتضمن القصص والإخبار، والذكر والسرد، والرواية والتبليغ، ونحو ذلك، كما أن هذه الألفاظ يجمعها إتباع الحروف بعضها بعضا.

يقول الفخر الرازي: (التلاوة والقصص واحد في المعنى، فإن كلا منهما يرجع معناه إلى شيء يذكر بعضه على إثر بعض).[٢]

ولذا قال ابن قتيبة: (التلاوة والرواية شيء واحد).[٣]

وقد أورد جمع من المفسرين هذه المعاني تفسيرا للفظ التلاوة في اثنتي عشرة آية من القرآن الكريم:

• يقول الله تعالى:

---

(١) معاني القرآن ٣٠٣/٢، وانظر: تفسير الزمخشري ٧٨/٢، البحر المحيط ٢٤٩/٤، تفسير أبي السعود ١٩٨/٣.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٧٨/٨.

(٣) تفسير غريب القرآن ص ٥٩.

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ ﴾. [المائدة: ٢٧].

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا ﴾. [الأعراف: ١٧٥].

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ ﴾. [يونس: ٧١].

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾. [الشعراء: ٦٩].

قال ابن كثير (أي: أخبرهم واقصص عليهم، أي: على كفار مكة).[١]

وقال الواحدي: (اقرأ واقصص يا محمد على قومك).[٢]

واقتصر البغوي هنا على تفسير اللفظ بالقراءة، فقال: (أي: اقرأ يا محمد على أهل مكة).[٣]

• ويقول تعالى: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ﴾. [الكهف: ٨٣]

قال ابن جرير: (سأقص عليكم منه خبرا).[٤]

• ويقول تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا ﴾. [القصص: ٥٩].

قال الفخر الرازي: (ومعنى ﴿ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا ﴾: يؤدي ويبلغ).[٥]

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٢٥، وانظر: ٢/٤١، تفسير القرطبي ٨/٢٣١، ١٣/٧٤.

(٢) تفسير الواحدي ١/٤٢١، وانظر: فتح القدير ٤/١٠٤.

(٣) تفسير البغوي ٢/٣٦٢، وانظر: تفسير الطبري ١٩/٨٣.

(٤) تفسير الطبري ١٦/٨، وانظر: تفسير أبي السعود ٥/٢٤١.

(٥) تفسير الفخر الرازي ٢٥/٥.

وقال البغوي: (قال مقاتل: يخبرهم الرسول أن العذاب نازل بهم إن لم يؤمنوا).[١]

• ويقول تعالى: ﴿ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡ ﴾. [الأنعام: ١٥١].

قال ابن كثير: (أي: أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم).[٢]

وقال أبو حيان: (أتل: أسرد وأقص، من التلاوة، وهي إتباع بعض الحروف بعضا).[٣]

وقال الزمخشري: (بمعنى: أقل أي شيء حرم ربكم، لأن التلاوة من القول).[٤]

وفسر ابن جرير فعل التلاوة هنا بالقراءة، فقال في معنى الآية: (تعالوا أيها القوم أقرأ عليكم ما حرم ربكم).[٥]

• ويقول تعالى: ﴿ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾. [القصص: ٣].

قال ابن جرير: (يقول: نقرأ عليك ونقص في هذا القرآن من خبر

---

(١) تفسير البغوي ٣/٤٥١، وانظر: تفسير القرطبي ١٣/١٩٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/١٨٧.

(٣) البحر المحيط ٤/٢٤٩.

(٤) تفسير الزمخشري ٢/٧٨، وانظر: معاني القرآن للزجاج ٢/٣٠٣، تفسير أبي السعود ٣/١٩٨.

(٥) تفسير الطبري ٨/٨١، وانظر تفسير البغوي ٢/١٤٠.١٤١.

موسى وفرعون بالحق).[١]

وقال ابن كثير: (الآية كما قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾أي: نذكر لك الأمر على ما كان عليه).[٢]

• ويقول تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾. [آل عمران: ٥٨].

فسر البغوي التلاوة هنا بالإخبار فقال: (يعني: نخبرك به بتلاوة جبريل عليك).[٣]

وفسرها ابن جرير بالقراءة فقال: (يقول: نقرؤها عليك يا محمد على لسان جبريل ﷺ بوحينا إليك).[٤]

• ويقول تعالى:

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾. [البقرة: ٢٥٢].

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/٢٦، وانظر: تفسير القرطبي ١٣/١٦٥، البحر المحيط ٧/١٠٤، روح المعاني ٢٠/٤٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٣٧٩.

(٣) تفسير البغوي ١/٣٠٩.

(٤) تفسير الطبري ٣/٢٩٤، وانظر: تفسير ابن كثير ١/٣٦٧.

قال الفخر الرازي في تفسيره ٨/٧٨: (ثم إنه تعالى أضاف التلاوة إلى نفسه في هذه الآية، وفي قوله: ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ ﴾، وأضاف القصص إلى نفسه فقال: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾، وكل ذلك يدل على أنه تعالى جعل تلاوة الملك جارية مجرى تلاوته ﷻ، وهذا تشريف عظيم للملك، وإنما حسن ذلك لأن تلاوة جبريل صلى الله عليه وسلم لما كان بأمره من غير تفاوت أصلا أضيف ذلك إليه ﷻ).

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾. [آل عمران: ١٠٨].

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾. [الجاثية: ٦].

قال ابن الجوزي في تفسير آية البقرة: (أي نقص عليك من أخبار المتقدمين).[١]

وقال أبو حيان في تفسير آية الجاثية: (أي نسردها عليك).[٢]

وقال البغوي: (هذا الذي قصصنا عليك من آيات الله نقصها عليك بالحق).[٣]

وقال ابن جرير: (هذه الآيات والحجج يا محمد من ربك على خلقه نتلوها عليك بالحق، يقول: نخبرك عنها بالحق لا بالباطل).[٤]

وبنحو ذلك قال في تفسير آية البقرة.[٥]

وقال في تفسير آية آل عمران: (نقرؤها عليك ونقصها).[٦]

---

(١) زاد المسير ١/٢٦٣، وانظر: تفسير ابن كثير ١/٣٠٣.

(٢) البحر المحيط ٨/٤٣.

(٣) تفسير البغوي ٤/١٥٧.

(٤) تفسير الطبري ٢٥/١٤١، وانظر: تفسير القرطبي ٤/١٠٩.

(٥) انظر: تفسير الطبري ٢/٦٣٤.

(٦) تفسير الطبري ٤/٤١، وانظر: معاني القرآن للزجاج ١/٤٥٥، البحر المحيط ٣/٢٦، روح المعاني ٤/٢٦.

وهذا الاختلاف في بيان المعنى المراد غير مؤثر، إذ الإخبار، والذكر، والتحديث، والقصص، والسرد، والتبليغ: كلها معان متقاربة أو مترادفة، لا تخرج عن دائرة القول، ولا تتنافى مع معنى القراءة، ولذا نلحظ التنوع في التعبير عن المعنى لدى ابن جرير مثلا، مع تماثل النص القرآني وتشابه سياقه، كما هو الحال في المجموعة الأخيرة من الآيات.

=

قال صاحب الأضواء ٣٣٨/٧: (أسند جل وعلا تلاوتها إلى نفسه، لأنها كلامه الذي أنزله على رسوله بواسطة الملك، وأمر الملك أن يتلوه عليه مبلغا عنه جل وعلا، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾).

المبحث الثالث

التلاوة بمعنى الاتباع

سجل المفسرون هذا المعنى بيانا للفعل (تلا) بصيغه المتعددة في تسع آيات كريمات، باتفاق في واحدة منها فقط، أسند الفعل فيها إلى القمر، وذلك في قول الله سبحانه: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾. [الشمس: ١ - ٢].

قال ابن قتيبة: (أي تبع الشمس).[١]

أما الآيات الباقيات، فقد كان لأهل التفسير في بيان معنى اللفظ فيها قولان بارزان:

أولهما: الاتباع.

وثانيهما: القراءة.

وفيما يلي بيان ذلك، مع الاقتصار على الشاهد من الآيات:

- **الآية الأولى:**

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾. [البقرة: ١٠٢].

نزلت هذه الآية في شأن اليهود وتعاطيهم السحر.[٢]

(١) تفسير غريب القرآن ص ٥٢٩، وانظر: تفسير الطبري ٢٠٨/٣٠، وغيره.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٤٤٤/١ .٤٤٦، تفسير البغوي ٩٨/١، أحكام القرآن ٤٤/١، تفسير القرطبي ٣٠/٢.

وقد اختار بعض المفسرين أن تلاوة الشياطين هنا بمعنى القراءة.

قال الزمخشري: (يعني: واتبعوا كتب السحر والشعوذة التي كانت تقرؤها).[١]

وعبر بعضهم بمعان مقاربة: كالرواية والتحديث، والقصص والإخبار، ونحوها.

قال ابن قتيبة: (أي: ما ترويه الشياطين على ملك سليمان، والتلاوة والرواية شيء واحد).[٢]

وقال ابن كثير: (ما ترويه وتخبر به وتحدثه الشياطين).[٣]

يقول الراغب: (واستعمل فيه لفظ التلاوة، لما كان يزعم الشيطان أن ما يتلونه من كتب الله).[٤]

وهذه العبارة من الراغب مبنية على قوله باختصاص لفظ التلاوة في الاستعمال بكلام الله المنزل.

واكتفى بعض المفسرين بإيراد القولين.

قال ابن عطية: (قال عطاء: معناه: تقرأ، من التلاوة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما:

---

(١) تفسير الزمخشري ١٩٨/١، وانظر: غرائب القرآن ٣٨٦/١، تفسير أبي السعود ١٣٦/١، فتح القدير ١١٩/١.

(٢) تفسير غريب القرآن ص ٥٩، وانظر: تفسير المشكل ص ٣١، تفسير السمعاني ١١٤/١، تفسير القاسمي ٢٠٨/٢.

(٣) تفسير ابن كثير ١٣٦/١، وانظر: تفسير الواحدي ١٢١/١، تفسير الفخر الرازي ٢٢٥/٣ - ٢٢٦، تفسير ابن عاشور ٦٢٩/١.

(٤) المفردات ص٧٥.

تتلو: تتبع، كما تقول: جاء القوم يتلو بعضهم بعضا).[١]

ولذا احتملها ابن جزي، والبيضاوي، والبقاعي، والألوسي.[٢]

ويقول البغوي في بيان معنى ﴿تَتْلُوا﴾: (أي: تقرأ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: تتبع وتعمل به، وقال عطاء: تحدث وتتكلم به).[٣]

وإذا كان البغوي قد مال إلى معنى القراءة، وكذلك القرطبي [٤]، فقد توقف ابن جرير في ترجيح أحد القولين.

يقول ابن جرير: (واختلف في تأويل قوله: ﴿تَتْلُوا﴾.

فقال بعضهم: يعني بقوله: ﴿تَتْلُوا﴾: تحدث وتروي وتتكلم به وتخبر، نحو تلاوة الرجل للقرآن، وهي قراءته.

ووجه قائلو هذا القول تأويلهم ذلك إلى أن الشياطين هي التي علمت الناس السحر وروته لهم..

وقال آخرون: معنى قوله: ﴿مَا تَتْلُوا﴾: ما تتبعه وتعمل به..

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله جل ثناؤه أخبر عن الذين أخبر عنهم أنهم اتبعوا ما تتلو الشياطين على عهد سليمان، باتباعهم ما تلته الشياطين.

---

(١) تفسير ابن عطية ٤١٣/١ . ٤١٤.

(٢) انظر: التسهيل ٥٥/١، تفسير البيضاوي ٧٨/١، نظم الدرر ٢٠٥/١، روح المعاني ٣٣٧/١.

(٣) تفسير البغوي ٩٨/١.

(٤) انظر: تفسير القرطبي ٣٠/٢.

ولقول القائل: (هو يتلو كذا) في كلام العرب معنيان:

أحدهما: الاتباع، كما يقال: تلوت فلانا إذا مشيت خلفه وتبعت أثره..

والآخر: القراءة والدراسة، كما تقول: فلان يتلو القرآن، بمعنى أنه يقرؤه ويدرسه..

ولم يخبرنا الله جل ثناؤه بأي معنى التلاوة كانت تلاوة الشياطين، الذين تلوا ما تلوه من السحر على عهد سليمان، بخبر يقطع العذر.

وقد يجوز أن تكون الشياطين تلت ذلك دراسة ورواية وعملا، فتكون كانت متبعته بالعمل، ودارسته بالرواية، فاتبعت اليهود منهاجها في ذلك وعملت به وروته). [١]

وابن جرير بهذا الاختتام يحتمل الجمع بين القولين في المعنى المراد، ولذا جوز اقتران الأمرين ضمن قبائح يهود: رواية ما يتعلق بالسحر ودراسته وقراءته، واتباع فنون السحر وتطبيقه والعمل به.

• الآية الثانية:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾. [البقرة: ١٢١].

وسيأتي الحديث عنها. بتوفيق الله سبحانه. في مبحث مستقل.

• الآية الثالثة:

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾. [يونس: ٣٠].

(١) تفسير الطبري ١/٤٤٧. ٤٤٨ (مختصرا).

هذه قراءة القراء السبعة عدا حمزة والكسائي: (تبلو) بالباء، أي: تختبر ما أسلفت من العمل[١]، والمراد: يعلم الإنسان في موقف الحساب عاقبة ما قدم من الحسنات والسيئات.

أما قراءة حمزة والكسائي فهي (تتلو): (هنالك تتلو كل نفس ما أسلفت)، وفي تفسيرها القولان المشهوران[٢]:

القول الأول: أن (تتلو) بمعنى: تقرأ.

قال الفراء: (أي: تقرأ كل نفس عملها في كتاب، كقوله: ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ ﴾).[٣]

وفسره ابن قتيبة والراغب بالقراءة أيضا [٤]، واختاره البغوي، والقرطبي، والألوسي.[٥]

القول الثاني: أن (تتلو) بمعنى: تتبع، وإليه مال ابن عطية.[٦]

قال ابن عاشور: (أي: تتبع كل نفس ما قدمته من عمل، فيسوقها إلى

(١) انظر: معاني القرآن للنحاس ٣/٢٩١، تأويل المشكل ص ١٠٢، تفسير البغوي ٢/٣٥٢، زاد المسير ٤/٢٥، تفسير ابن كثير ٢/٤١٦، روح المعاني ١١/١٠٩.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١١/١١٢ . ١١٣، معاني القرآن للزجاج ٣/١٧، معاني القرآن للنحاس ٣/٢٩٢، إملاء ما من به الرحمن ٢/٢٨، حجة القراءات ص ٣٣١، زاد المسير ٤/٢٥، التسهيل ٢/٩٢، تفسير البيضاوي ١/٤٣٤، تفسير النسفي ٢/١٦، أضواء البيان ٢/٤٨١.

(٣) معاني القرآن ١/٤٦٣.

(٤) انظر: تفسير غريب القرآن ص ١٩٦، المفردات ص ٧٥.

(٥) انظر: تفسير البغوي ٢/٣٥٢، تفسير القرطبي ٨/٢١٣، روح المعاني ١١/١٠٩.

(٦) تفسير ابن عطية ٧/١٤٢، وانظر: الدر المنثور ٤/٣٦٢.

الجنة أو إلى النار).[١]

واحتمل اليزيدي القولين: القصص، والاتباع.[٢]

• **الآية الرابعة:**

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾. [هود: ١٧].

والآية متعلقة بما قبلها في السياق القرآني، والمقصود: أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه، كمن آثر دنياه، واتبع هواه، فأصر على ظلمة الكفر، وأبى الإذعان لدعوة الحق.

قال ابن الجوزي: (وفي قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ﴾قولان، أحدهما: يتبعه، والثاني: يقرؤه).[٣]

والقول الأول هو اختيار عامة المفسرين [٤]، أن المراد: ويتبعه شاهد

(١) تفسير ابن عاشور ١١/١٥٣، وانظر: تفسير الطبري ١١/١١٣، تفسير ابن كثير ٢/٤١٦، روح المعاني ١١/١٠٩، أضواء البيان ٢/٤٨١.

(٢) غريب القرآن ص ١٧١.

(٣) زاد المسير ٤/٧١.

(٤) انظر: تأويل مشكل القرآن ص ٣٧٥، معاني القرآن للزجاج ٣/٤٣، تفسير البغوي ٢/٣٧٧، تفسير الزمخشري ٢/٣٨٥، المفردات ص ٨٢، تفسير الفخر الرازي ١٧/٢٠١، التسهيل ٢/١٠٣، تفسير النسفي ٢/٤٨، مجموع الفتاوى ١٥/٧٠، ١٥/٨٨، نظم الدرر ٣/٥١٣، تفسير أبي السعود ٤/١٩٤، تفسير الجلالين ص ٢٨٧، فتح القدير ٢/٤٨٨، روح المعاني ١٣/٢٧، تفسير المنار ١٢/٥١، تفسير ابن عاشور ١١/٢٧، تفسير القاسمي ٩/١٠٦.

منه، على اختلاف بينهم في تحديد المقصود بالبينة والشاهد في الآية الكريمة.[١]

والأقرب - والعلم عند الله تعالى - أن المقصود بالآية المؤمنون، يجتمع لهم نور الإيمان ونور القرآن، والمعنى[٢]:

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ أي: على حجة وبيان، ويقين وبرهان، قد استقامت فطرته، وصفا عقله، واستنارت بصيرته، فبانت له معالم الدين الحق، وتميزت له منارات الهدى والرشد.

﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ أي: يلي هذا اليقين القلبي ويتبعه، ويعقب ذلك النور الفطري ويوافقه، شاهد من الله جل وعلا، وهو القرآن الكريم، يتنزل به جبريل على رسول الله ﷺ، مشتملا على تفصيل مسائل الإيمان، ودقائق الشرعة والمنهاج، فيرتقي به أهل الإيمان إيمانا، ويزدادون بمتابعته نورا ويقينا.

وأيضا يتقدم على نزول القرآن شاهد ثالث، يؤيده ويشهد له بالصدق: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾، يتمثل في بشارة التوراة برسالة خاتم الأنبياء ﷺ، وشهادتها بصحة القرآن.

(١) انظر: زاد المسير ٤/٧١ . ٧٣، تفسير ابن عطية ٧/٢٥٦ . ٢٦١، مجموع الفتاوى ١٥/٦٤ - ٩٠.

(٢) انظر: البحر المحيط ٥/٢١١، تفسير ابن كثير ٢/٤٤٠، نظم الدرر ٣/٥١٣، تفسير المنار ١٢/٥٠.٥٢.

يقول ابن تيمية: (هو المؤمن على بينة من ربه، ويتبعه شاهد من الله، وهو القرآن، شهد الله في القرآن بمثل ما عليه المؤمن من بينة الإيمان).[١]

وذهب بعض المفسرين[٢] إلى تفسير لفظ التلاوة هنا بالقراءة: ويقرؤه شاهد منه، على اعتبار أن البينة هي القرآن، والشاهد من الله تعالى هو جبريل: يقرأ على نبينا ﷺ ما يتنزل من الكتاب العزيز.

قال السمرقندي في تفسير الآية الكريمة (﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ يعني: على بيان من ربه، وهو محمد ﷺ ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ يقول: يقرأ جبريل هذا القرآن على محمد ﷺ، وهو شاهد منه، يعني: من الله تعالى).[٣]

• **الآية الخامسة:**

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾. [الكهف: ٢٧].

أورد ابن الجوزي قولي أهل التفسير في معنى ﴿ وَٱتْلُ ﴾ في هذه الآية الكريمة، فقال:

(في هذه التلاوة قولان، أحدهما: أنها بمعنى القراءة، والثاني: أنها بمعنى الاتباع، فيكون المعنى على الأول: اقرأ القرآن، وعلى الثاني: اتبعه

(١) مجموع الفتاوى ١٣/٦٩، وانظر ١٥/٧١.
(٢) انظر: تفسير ابن عطية ٧/٢٥٨، ٧/٢٦١، مجموع الفتاوى ١٥/٦٥، ١٥/٨٦ .٨٧، روح المعاني ١٣/٢٧، تفسير المنار ١٢/٥٣.
(٣) تفسير السمرقندي ٢/١٤٢.

واعمل به).[١]

وقد اختار جمع من المفسرين المعنى الثاني: الاتباع، كابن جرير، والواحدي، وابن عطية، والقرطبي، والسعدي.

قال ابن جرير في معنى الآية: (واتبع يا محمد ما أنزل إليك من كتاب ربك هذا، ولا تتركن تلاوته واتباع ما فيه من أمر الله ونهيه، والعمل بحلاله وحرامه).[٢]

وقال السعدي: (التلاوة هي الاتباع، أي: اتبع ما أوحى الله إليك: بمعرفة معانيه وفهمها، وتصديق أخباره، وامتثال أوامره ونواهيه).[٣]

واحتمل بعض أهل التفسير هذا المعنى، كالنيسابوري والألوسي، غير أنهم اختاروا أن التلاوة هنا بمعنى القراءة.

قال الألوسي: (هو أمر من التلاوة، بمعنى القراءة. وجوز أن يكون (اتل) أمرا من التلو، بمعنى الاتباع، أي: اتبع ما أوحي إليك والزم العمل به).[٤]

واقتصر آخرون على معنى القراءة.[٥]

(١) زاد المسير ٥/٩٣.
(٢) تفسير الطبري ١٥/٢٣٣، وانظر: تفسير الواحدي ٢/٦٥٩، تفسير ابن عطية ٩/٢٨٨، تفسير القرطبي ١٠/٢٥٣.
(٣) تفسير السعدي ٣/١٥٣.
(٤) روح المعاني ١٥/٢٥٧ (مختصرا)، وانظر: غرائب القرآن ١٥/١٢٨، فتح القدير ٣/٢٨١.
(٥) انظر: المفردات ص ٨٢، تفسير السمرقندي ٢/٣٤٤، تفسير الزمخشري ٢/٦٧٠، البحر المحيط ٦/١١٧، تفسير ابن كثير ٣/٨٠، نظم الدرر ٤/٤٦٢، تفسير ابن عاشور ١٥/٣٠٤.

ولما كان الجمع بين المعنيين ممكنا، فقد اتجه إليه عدد من علماء التفسير.

قال البغوي: (أي: واقرأ يا محمد (ما أوحي إليك من كتاب ربك)، يعني: القرآن، واتبع مافيه).[١]

وقال الرازي: (قوله: (اتل) يتناول القراءة، ويتناول الاتباع أيضا، فيكون المعنى: الزم قراءة الكتاب الذي أوحي إليك، والزم العمل به).[٢]

وتابعهما الشنقيطي في تعميم المعنى، فقال: (والأمر في قوله ﴿ وَٱتْلُ ﴾ شامل للتلاوة بمعنى القراءة، والتلو بمعنى الاتباع).[٣]

ذلك أن اللفظ في الآية الكريمة محتمل للمعنيين.

• **الآية السادسة:**

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ﴾. [النمل: ٩١-٩٢].

احتمل الزمخشري المعنيين دون ترجيح، فقال: (من التلاوة، أو من التلو: كقوله (واتبع ما يوحى إليك)).[٤]

واختار النيسابوري معنى الاتباع، فقال في تفسير الآيات: (ومنها: أمره بتلاوة القرآن، أي: بتلوه، أي: اتباعه).[٥]

(١) تفسير البغوي ٣/١٥٨.
(٢) تفسير الفخر الرازي ٢١ /١١٤.
(٣) أضواء البيان ٤/٨٥.
(٤) تفسير الزمخشري ٣/٣٨٨، وانظر: تفسير البيضاوي ٢/١٨٥، تفسير النسفي ٢/٦٣٠.
(٥) غرائب القرآن ٢٠/٢١.

بينما اختار جمع من المفسرين معنى القراءة.[١]

وإليه مال أبو حيان، فقد قال في تفسير الآية: (إما من التلاوة، أي: وأن أتلو عليكم القرآن، وهذا الظاهر، إذ بعده التقسيم المناسب للتلاوة[٢]، وإما من التلو، أي: وأن أتبع القرآن، كقوله: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾).[٣]

وجمع البقاعي بين المعنيين فقال: (أي: أواظب على تلاوته، وتلوه - أي: اتباعه -، عبادة لربي، وإبلاغا للناس ما أرسلت به إليهم، ولأكون مستحضرا لأوامره فأعمل بها ولنواهيه فأجتنبها).[٤]

وهو اختيار ابن القيم، ولكن باعتبار أن اللفظ في الآية يعني مطلق الاتباع، وأن تلاوة اللفظ تمثل جزءا من مفهوم هذا المسمى.[٥]

• **الآية السابعة:**

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾. [العنكبوت: ٤٥].

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/٥٩٦، تفسير ابن عطية ١١/٢٥٦، تفسير الفخر الرازي ٢٤/٢٢٣، زاد المسير ٦/٨٤، تفسير القرطبي ١٣/١٦٣، تفسير ابن كثير ٣/٣٧٨ - ٣٧٩، تفسير أبي السعود ٦/٣٠٦، تفسير ابن عاشور ٢٠/٥٧.
(٢) يقصد ما ورد في تمام الآية الكريمة: (فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين).
(٣) البحر المحيط ٧/١٠٢، وانظر: فتح القدير ٤/١٥٦، روح المعاني ٢٠/٣٩.
(٤) نظم الدرر ٥/٤٥٨ (مختصرا)، وانظر: تفسير السمعاني ٤/١١٩.
(٥) انظر: مفتاح دار السعادة ١/٥٤- ٥٥.

فسر ابن كثير تلاوة القرآن هنا بالقراءة والتبليغ، قال: (وهو قراءته وإبلاغه للناس).(١)

وكذلك فسره ابن جرير وغيره بالقراءة أيضا.

قال ابن جرير: (﴿ اتْلُ ﴾ يعني: اقرأ ﴿ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾، يعني: ما أنزل إليك من هذا القرآن).(٢)

وتفسير ابن جرير للفظ التلاوة هنا بالقراءة يتعارض .في الظاهر .مع ما أورده في تفسير آية الكهف: ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾، حيث فسر اللفظ هناك بالاتباع.

غير أن استقراء تفسير ابن جرير لهذا اللفظ في مواضعه، يكشف اتجاهه إلى التمييز بين ورود اللفظ مجردا أو مقترنا بالعمل.

ولذا فسر لفظ (اتل) في آية العنكبوت هذه بمعنى القراءة، لاقترانه بعطف العمل عليه: (اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة).

وهو ما فعله أيضا في تفسير آية فاطر، التي جمعت بين تلاوة القرآن والصلاة والإنفاق.

ولما أطلق اللفظ في آية الكهف مجردا عن عطف العمل عليه، فسره هناك بمعنى الاتباع.

غير أن بعض أهل التفسير يرى أن اللفظ هنا ـ أي: في آية العنكبوت ـ

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤١٤، وانظر: تفسير القرطبي ١٣/٢٣٠.
(٢) تفسير الطبري ٢٠/١٥٤، وانظر: تفسير السمرقندي ٢/٦٣٥، تفسير الفخر الرازي ٢٥/٧١ - ٧٢، تفسير النسفي ٢/٦٨٨، نظم الدرر ٥/٥٦٣.

يعني عموم الاتباع، ومن ثم فإن عطف بعض أنواع العمل عليه هو من باب عطف الخاص على العام، على سبيل التشريف.

يقول ابن تيمية: (ثم قد يقرن بالتلاوة غيرها كقوله: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾، قال أحمد بن حنبل وغيره: تلاوة الكتاب العمل بطاعة الله كلها، ثم خص الصلاة بالذكر).(١)

وعليه فإن قراءة القرآن جزء من العمل الصالح، الذي تشمله وتتضمنه دائرة الفعل ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾، بمعناه العام: اتباع القرآن والعمل به.

وهو قول ابن القيم(٢): أن مسمى التلاوة هنا مطلق يشمل في دائرته قراءة اللفظ القرآني.

ويقول السعدي في تفسير الآية الكريمة: (يأمر تعالى بتلاوة وحيه وتنزيله، وهو هذا الكتاب العظيم، ومعنى تلاوته: اتباعه: بامتثال ما يأمر به، واجتناب ما ينهى عنه، والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، وتدبر معانيه، وتلاوة ألفاظه، فصار تلاوة لفظه جزء المعنى وبعضه.

وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب، علم أن إقامة الدين كلها داخلة في

(١) الإيمان ص ١٦٠.
(٢) انظر: مفتاح دار السعادة ص ٥٤ - ٥٥.

تلاوة الكتاب، فيكون قوله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ من باب عطف الخاص على العام، لفضل الصلاة وشرفها).(١)

ويقول السعدي أيضا في موضع آخر: (ورد في القرآن آيات عامة، عطف عليها بعض أفرادها الداخلة فيها، وذلك يدل على فضيلة المخصوص).

وبعد أن ذكر عددا من الأمثلة قال: (ومثله: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾، أي: اتبعه، ويدخل في ذلك جميع الشرائع، ثم قال: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، وذكر السبب في ذلك، إلى غير ذلك من الآيات، التي إذا تأملت المخصوص من العام، علمت أن ذلك لشرفه وآكديته وما يترتب عليه من الثمرات الطيبة).(٢)

أما الشوكاني - وهو ممن فسر التلاوة بالقراءة - فقد جعل تدبر المقروء من الكتاب العزيز، جزءا من دائرة هذا المفهوم، حين قال في تفسير الآية: (وفيه الأمر بالتلاوة للقرآن، والمحافظة على قراءته، مع التدبر لآياته، والتفكر في معانيه).(٣)

ولعل ذلك باعتبار أن القراءة في ذاتها تقتضي محاولة تفهم المعنى المراد.

---

(١) تفسير السعدي ٤/ ٦٣.
(٢) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن ص ٣٢٠-٣٢١.
(٣) فتح القدير ٤/ ٢٠٤، وانظر: تفسير البيضاوي ٢/ ٢١٠، تفسير أبي السعود ٧/ ٤١، تفسير القاسمي ١٣/ ١٥٢.

• الآية الثامنة:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾. [فاطر: ٢٩].

فسر ابن جرير تلاوة القرآن في هذه الآية بالقراءة: (إن الذين يقرؤون كتاب الله).(١)

وذلك باعتبار أن التلاوة هنا: ﴿ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ ﴾ لم ترد مجردة، وإنما اقترنت بعطف العمل - الصلاة والإنفاق - عليها: ﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾.

وهو ذات ما فسر به اللفظ في آية العنكبوت، التي قرنت بين تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة.

وقد اختار تفسير التلاوة بالقراءة جمع من أهل التفسير، بناء على أن الآية الكريمة جمعت بين عبادة لسانية: قراءة القرآن، وعبادة بدنية: الصلاة، وعبادة مالية: الإنفاق، إضافة إلى خشية الله جل شأنه، وهي عبادة قلبية تضمنتها الآية السابقة: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾.

قال ابن الجوزي: (يعني قراء القرآن، فأثنى عليهم بقراءة القرآن).(٢)

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ١٣٢.
(٢) زاد المسير ٦/ ٢٥٣، وانظر: تفسير السمرقندي ٣/ ١٠٠، تفسير البغوي ٣/ ٥٧٠، تفسير الزمخشري ٣/ ٦٢١، التسهيل ٣/ ١٥٨، تفسير النسفي ٣/ ١٢٣، تفسير الجلالين ص ٥٧٥، فتح القدير ٤/ ٣٤٨، روح المعاني ٢٢/ ١٩٢، تفسير القاسمي ١٤/ ٥٢، تفسير ابن عاشور ٢٢/ ٣٠٨.

وقال أبو حيان: (لما ذكر تعالى وصفهم بالخشية، وهي عمل القلب، ذكر أنهم يتلون كتاب الله، وهو عمل اللسان، وأقاموا الصلاة، وهو عمل الجوارح، وينفقون، وهو العمل المالي.. يقصدون بذلك وجه الله).[١]

وقال البقاعي: (وقد تحصل من هذا أنه جعل لفعل القلب - الذي هو الخشية -: دليلا باللسان، وآخر بالأركان، وثالثا بالأموال).[٢]

ومن ثم اعتبر القرطبي هذه الآية (آية القراء العالمين العاملين)[٣]، مقتفيا في عبارته هذه أثر التابعي الجليل مطرف بن عبد الله بن الشخير.

روى ابن جرير وغيره عن قتادة قال: (كان مطرف إذا مر بهذه الآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ يقول: هذه آية القراء).[٤]

قال ابن عطية: (وهذا على أن ﴿ يَتۡلُونَ ﴾ بمعنى: يقرأون، وإن جعلناها بمعنى: يتبعون، صح معنى الآية، وكانت في القراء وغيرهم ممن اتصف بأوصاف الآية).[٥]

وقد ذكر المفسرون[٦] هذا القول الثاني في تفسير الآية الكريمة: أن معنى ﴿يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾: يتبعون القرآن، فيمتثلون أمره، ويعملون

---

(١) البحر المحيط ٣١٢/٧، وانظر: تفسير الفخر الرازي ٢٢/٢٦، غرائب القرآن ٧٩/٢٢.

(٢) نظم الدرر ٢٢٣/٦.

(٣) تفسير القرطبي ٢٢٠/١٤، وانظر: تفسير الفخر الرازي ٢٢/٢٦، نظم الدرر ٢٢٢/٦.

(٤) تفسير الطبري ١٣٢/٢٢، ١٣٣، وانظر: الدر المنثور ٢٣/٧.

(٥) تفسير ابن عطية ٢٤٤/١٢.

(٦) انظر: تفسير السمرقندي ١٠٠/٣، تفسير الزمخشري ٦٢١/٣، التسهيل ١٥٨/٣، تفسير البيضاوي ٢٧٢/٢، تفسير أبي السعود ١٥١/٧ . ١٥٢.

بمنهاجه وحكمه.

واختاره السعدي، إذ يرى أن تلاوة القرآن هنا تعني عموم الاتباع وشموليته، بحيث ينتظم في دائرته كل عمل صالح دعا إليه الكتاب العزيز، ومن ذلك قراءة آياته، وتفهم معانيه، وتصديق أخباره، معتبرا أن العطف في الآية خصوص بعد عموم، غايته الاهتمام والتشريف.

يقول السعدي في تفسير الآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾: (أي: يتبعونه في أوامره فيمتثلونها، وفي نواهيه فيتركونها، وفي أخباره فيصدقونها ويعتقدونها، ولا يقدمون عليها ما خالفه من الأقوال، ويتلون أيضا ألفاظه بدراسته، ومعانيه بتتبعها واستخراجها، ثم خص من التلاوة بعد ما عم: الصلاة التي هي عماد الدين..، والنفقة على الأقارب والمساكين..).[١]

وهو قول يتأسس على ما أورده ابن القيم، من اعتبار حقيقة التلاوة هنا مطلقة، تشمل تلاوة اللفظ بالقراءة، وتلاوة المعنى بالاتباع.[٢]

---

(١) تفسير السعدي ٢١٦/٤.

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة ٥٤/١ . ٥٥.

المبحث الرابع

حق التلاوة

ورد فعل التلاوة مقترنا بمصدره في آية واحدة من القرآن الكريم، متضمنة ثناء من الله تبارك وتعالى على عباده الذين يتلون الكتاب حق تلاوته.

هذه الآية هي قول الله جل شأنه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾. [البقرة: ١٢١].

وهناك قولان رئيسان أوردهما أهل التفسير[١] فيمن نزلت الآية بشأنهم:

أولهما: أن الآية نزلت في المسلمين، والمراد بالكتاب القرآن.

وثانيهما: أنها نزلت فيمن أسلم من أهل الكتاب، والمراد بالكتاب التوراة.

سجل الرازي هذين القولين في تفسيره[٢] مبتدئا بالأول، عارضا حجج القائلين بهما دون ترجيح.

يقول الفخر الرازي: (المراد بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ من هم؟ فيه قولان:

(١) انظر: تفسير البغوي ١/١١٠، تفسير ابن عطية ١/٤٧٠، تفسير القرطبي ٢/٦٦، البحر المحيط ١/٣٦٩، التسهيل ١/٥٩.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٤/٣٥.

أحدهما: أنهم المؤمنون الذين آتاهم الله القرآن.[١]

واحتجوا عليه من وجوه:

أحدها: أن قوله: ﴿ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ حث وترغيب في تلاوة هذا الكتاب، ومدح على تلك التلاوة، والكتاب الذي هذا شأنه هو القرآن، لا التوراة والإنجيل، فإن قراءتها غير جائزة.

وثانيها: أن قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ ﴾ يدل على أن الإيمان مقصور عليهم، ولو كان المراد أهل الكتاب لما كان كذلك.

وثالثها: قوله: ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾، والكتاب الذي يليق به هذا الوصف هو القرآن.

القول الثاني: أن المراد بالذين آتاهم الكتاب هم الذين آمنوا بالرسول من اليهود.

والدليل عليه: أن الذين تقدم ذكرهم هم أهل الكتاب، فلما ذم طريقتهم، وحكى عنهم سوء أفعالهم، أتبع ذلك بمدح من ترك طريقتهم، بل تأمل التوراة، وترك تحريفها، وعرف منها صحة نبوة محمد ﷺ).

وهذا القول الثاني هو ما رجحه ابن جرير في تفسيره، مستدلا له بسياق الآية الكريمة.

يقول ابن جرير: (وهذا القول أولى بالصواب.. لأن الآيات قبلها

(١) وممن اختار هذا القول ابن جزي في التسهيل ١/٥٩.

مضت بأخبار أهل الكتابين، وتبديل من بدل منهم كتاب الله، وتأويلهم إياه على غير تأويله، وادعائهم على الله الأباطيل، ولم يجر لأصحاب محمد ﷺ في الآية التي قبلها ذكر، فيكون قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ موجها إلى الخبر عنهم، ولا لهم بعدها ذكر في الآية التي تتلوها، فيكون موجها ذلك إلى أنه خبر مبتدأ عن قصص أصحاب رسول الله ﷺ بعد انقضاء قصص غيرهم، ولا جاء بأن ذلك خبر عنهم أثر يجب التسليم له، فإذا كان ذلك كذلك فالذي هو أولى بمعنى الآية، أن يكون موجها إلى أنه خبر عمن قص الله جل ثناؤه في الآية قبلها والآية بعدها، وهم أهل الكتابين التوراة والإنجيل، وإذا كان ذلك كذلك فتأويل الآية: الذين آتيناهم الكتاب الذي قد عرفته يا محمد، وهو التوراة، فقرأوه واتبعوا ما فيه، فصدقوك وآمنوا بك وبما جئت به من عندي، أولئك يتلونه حق تلاوته..).[1]

واحتمل بعض علماء التفسير ـ كالبغوي، وابن عطية، وابن جزي ـ في مراد الآية العموم، ويكون (الكتاب) على هذا اسم جنس، يشمل التوراة والقرآن.

قال ابن عطية: (ويحتمل أن يراد بـ(الذين) العموم في مؤمني بني

(١) تفسير الطبري ١/٥١٨ . ٥١٩، واختار هذا القول أيضا جمع من المفسرين كالسمرقندي ١/١١٦، والواحدي ١/١٢٩، والزمخشري ١/٢٠٩، والبيضاوي ١/٨٥، وابن كثير ١/١٦٣، ١٦٤، والبقاعي: نظم الدرر ١/٢٣٥، وأبي السعود ١/١٥٣، والألوسي: روح المعاني ١/٣٧٢، والقاسمي ٢/٢٤٢.

إسرائيل والمؤمنين من العرب..).[1]

وعلى كل حال فإن (الآية تعم) كما قال القرطبي[2]، والاعتبار فيها بعموم اللفظ كما قرر صاحب الأضواء.[3]

وهذا الوصف القرآني الجليل ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ يتضمن مبالغة في الثناء على المتصفين به، وفي المراد به قولان رئيسان:

القول الأول: أن المقصود بالتلاوة الاتباع.

والمعنى: يتبعونه حق اتباعه، فيأتمرون بأوامره وينتهون عن نواهيه، ويحلون حلاله ويحرمون حرامه، ويمتثلون تعاليمه وينفذون شرائعه، ويعملون بمضامينه وأحكامه.

عن ابن عباس ﷺ قال في ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾: (يتبعونه حق اتباعه)، ثم قرأ: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ يقول: (اتبعها)[4]، وهو مروي أيضا عن ابن مسعود ﷺ، وعطاء، ومجاهد، وعكرمة، وأبي رزين، وقيس بن سعد، وإبراهيم النخعي.[5]

(١) تفسير ابن عطية ١/٤٧٠، وانظر: تفسير البغوي ١/١١٠، التسهيل ١/٥٩، البحر المحيط ١/٣٦٩، روح المعاني ١/٢٧٢، ٢٧٣.
(٢) تفسير القرطبي ٢/٦٦، وانظر: تفسير المنار ١/٤٤٨. ٤٤٩.
(٣) انظر: أضواء البيان ٤/٨٦.
(٤) تفسير الطبري ١/٥١٩، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم ١/٢١٨، تفسير ابن كثير ١/١٦٣، الدر المنثور ١/٢٧٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري ١/٥١٩ . ٥٢١، فضائل القرآن لأبي عبيد ص ٣٦، اقتضاء العلم العمل ص ٧٦، تفسير الثوري ص ٤٨، تفسير ابن أبي حاتم ١/٢١٨، تفسير ابن كثير ١/١٦٣ . ١٦٤، الدر المنثور ١/٢٧٢.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أيضا قال: (يحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ولا يحرفونه)[1]، وبنحوه عن ابن مسعود رضي الله عنه.[2]

وعن مجاهد أيضا قال: (يعملون به حق عمله)[3]، وبمثله عن عطاء.[4]

وعن الحسن البصري قال: (يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه).[5]

وعن قتادة قال: (أحلوا حلاله، وحرموا حرامه، وعملوا بما فيه).[6]

وإلى هذا القول مال جمع من المفسرين: كابن عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والسعدي[7]، وغيرهم[8]، ورجحه ابن جرير.[9]

---

(١) تفسير الطبري ٥١٩/١، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم ٢١٨/١، تفسير ابن كثير ١٦٣/١، الدر المنثور ٢٧٢/١.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٥٢٠/١، تفسير الصنعاني ٥٦/١. ٥٧، تفسير ابن أبي حاتم ٢١٨/١.

(٣) تفسير الطبري ٥٢٠/١، تفسير مجاهد ٨٧/١.

(٤) انظر: تفسير الطبري ٥٢٠/١.

(٥) تفسير الطبري ٥٢٠/١، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم ٢١٨/١، تفسير ابن كثير ١٦٣/١، الدر المنثور ٢٧٣/١.

(٦) تفسير الطبري ٥٢٠/١. ٥٢١.

(٧) انظر: تفسير ابن عطية ٤٧٠/١، زاد المسير ١٢٣/١، تفسير القرطبي ٦٦/٢، التذكار ص ٤٢، تفسير السعدي ٩٢/١.

(٨) انظر: فضائل القرآن لأبي عبيد ص ٣٦، تفسير السمرقندي ١١٦/١، نظم الدرر ٢٣٥/١، فتح القدير ١٣٦/١.

(٩) انظر: تفسير الطبري ٥٢١/١.

القول الثاني: أن المقصود بالتلاوة القراءة.

والمعنى: يقرأونه حق قراءته.[1]

واختار هذا القول عدد من أهل التفسير[2]، ورجحه صاحب التسهيل.[3]

قال أبو حيان في تفسير ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾: (أي: يقرؤونه ويرتلونه بإعرابه).[4]

وابتدأ به النسفي في بيان المعنى، غير أنه اعتبر القراءة الحقة هي القراءة المرتلة، التي يصاحبها علم وتفهم واتعاظ.

قال النسفي: (﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي: يقرؤونه حق قراءته: في الترتيل وأداء الحروف، والتدبر والتفكر).[5]

وكذلك اعتبر أبو حيان أن حق التلاوة للقرآن، يتمثل في (حسن التلفظ به وتتبع معانيه).[6]

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٥٢١/١.

(٢) انظر: تفسير الزمخشري ٢٠٩/١، النهر الماد ٣٦٩/١، تفسير الجلالين ص ٢٥، روح المعاني ٣٧٢/١، تفسير ابن عاشور ٦٩٦/١، واحتمله الشوكاني في فتح القدير ١٣٦/١.
ومنه ما رواه ابن أبي حاتم ٢١٩/١ عن زيد بن أسلم قال: (يتكلمون به كما أنزل ولا يكتمونه)، وانظر الدر المنثور ٢٧٣/١.

(٣) انظر: التسهيل ٥٩/١.

(٤) البحر المحيط ٣٦٩/١، والمراد بالإعراب هنا ضبط حركات الألفاظ.

(٥) تفسير النسفي ٨٥/١.

(٦) النهر الماد ٣٦٩/١.

واحتمل القرطبي هذا المعنى، إثر استبعاده لتفسير لفظ التلاوة بالقراءة، فقال: (وقيل: يقرؤونه حق قراءته. قلت: وهذا فيه بعد، إلا أن يكون المعنى: يرتلون ألفاظه، ويفهمون معانيه، فإن بفهم المعاني يكون الاتباع لمن وُفِّق).(١)

وهو اختيار ابن عاشور، فقد قال في تفسير الآية الكريمة: (أي: تلاوة حقا، والحق هنا ضد الباطل، أي: تلاوة مستوفية قوام نوعها، لا ينقصها شيء مما يعتبر في التلاوة، وتلك هي التلاوة بفهم مقاصد الكلام المتلو، فإن الكلام يراد منه إفهام السامع، فإذا تلاه القارئ ولم يفهم جميع ما أراده قائله، كانت تلاوته غامضة، فحق التلاوة هو العلم بما في المتلو).(٢)

ولعل مما يندرج في هذا المعنى - والعلم عند الله تعالى - ما روي عن عمر ﷺ في الآية: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾، قال: (إذا مر بذكر الجنة سأل الله الجنة، وإذا مر بذكر النار تعوذ بالله من النار)(٣)، وذلك باعتباره مشمولا بتفسير التلاوة الحقة بالقراءة المترسلة، التي تجمع بين تفهم المعنى، والخشوع به والتأثر والخضوع.

وأضاف آخرون من القائلين بهذا التفسير لحق التلاوة، أن القراءة الحقة لألفاظ القرآن، تقتضي أيضا - إضافة إلى ما سبق - معنى العمل بما تدل

---

(١) تفسير القرطبي ٢/٦٦.

(٢) تفسير ابن عاشور ١/٦٩٦، وانظر: تفسير المنار ١/٤٤٧.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ١/٢١٨، تفسير ابن كثير ١/١٦٣، ١٦٤، الدر المنثور ١/٢٧٢.

عليه آيات الكتاب العزيز، وتستلزم معنى الامتثال لما تتضمنه من الأمر والنهي.

فقد رجح ابن جزي أن معنى ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾: (أي: يقرأونه كما يجب: من التدبر له، والعمل به).(١)

وقال الألوسي: (أي: يقرؤونه حق قراءته، وهي قراءة تأخذ بمجامع القلب، فيراعى فيها: ضبط اللفظ، والتأمل في المعنى، وحق الأمر والنهي).(٢)

ومن الأقوال التي أوردها ابن تيمية في معنى الآية الكريمة: أن (من تمام قراءته أن يفهم معناه، ويعمل به).

مستشهدا بأثر التابعي الجليل أبي عبدالرحمن السلمي: (حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن - عثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرهما - أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات، لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا).(٣)

إن هذين الاتجاهين في بيان مفهوم حق التلاوة، يمكن الجمع بينهما،

---

(١) التسهيل ١/٥٩. قال: (وقيل: معناه: يتبعونه حق اتباعه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والأول أظهر - يعني تفسير اللفظ بالقراءة المستلزمة للتدبر والعمل - فإن التلاوة وإن كانت تقال بمعنى القراءة وبمعنى الاتباع، فإنه أظهر في معنى القراءة، لاسيما إذا كانت تلاوة الكتاب).

(٢) روح المعاني ١/٣٧٢، وانظر: تفسير القاسمي ٢/٢٤٢.

(٣) الإيمان ص ١٥٩ - ١٦٠.

وهو قول بعض المفسرين، وذلك باعتبار أن اللفظ يحتمل المعنيين: القراءة اللفظية، والاتباع العملي.

قال الواحدي: (يقرؤونه كما أنزل ولا يحرفونه، ويتبعونه حق اتباعه).[١]

وقال البيضاوي: (﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾: بمراعاة اللفظ عن التحريف، والتدبر في معناه، والعمل بمقتضاه)[٢]، وبنحوه قال أبو السعود.[٣]

يقول أبو حيان- إثر سرده عددا من الأقوال في المعنى المراد -: (والتلاوة لها معنيان: القراءة لفظا، والاتباع فعلا، وقد تقدم ما نقل في تفسير التلاوة هنا، والأولى أن يحمل على كل تلك الوجوه، لأنها مشتركة في المفهوم، وهو أن بينها كلها قدرا مشتركا، فينبغي أن يحمل عليه لكثرة الفوائد).[٤]

ولعل مقصوده بالقدر المشترك ما يجمع بين تلكم الأقوال، من أصل التعظيم للكتاب العزيز، ومفهوم الاحتفاء به والاستجابة له، ومن ثم تصبح كل تلك المعاني والمدلولات الصحيحة أنواعا وأمثلة، يصح أن تنتظم تحت ذلك الأصل الجامع، وأن تندرج ضمن المفهوم العام، ما دام يحتملها تعبير التلاوة بجناحيه: القراءة اللفظية، والاتباع العملي.

---

(١) تفسير الواحدي ١/١٢٩.

(٢) تفسير البيضاوي ١/٨٥.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ١/١٥٣.

(٤) البحر المحيط ١/٣٧٠، وانظر: تفسير الفخر الرازي ٤/٣٥. ٣٦.

ويقول الرازي في ذات الاتجاه: (أما قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ فالتلاوة لها معنيان: أحدهما: القراءة، والثاني: الاتباع فعلا، لأن من اتبع غيره يقال: تلاه فعلا، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾، فالظاهر أنه يقع عليهما جميعا، ويصح فيهما جميعا المبالغة، لأن التابع لغيره قد يستوفي حق الاتباع فلا يخل بشيء منه، وكذلك التالي يستوفي حق قراءته فلا يخل بما يلزم فيه).[١]

وهو قول ابن تيمية أيضا: أن اللفظ بهذا الإطلاق يشمل المعنيين معا: القراءة، والاتباع.

يقول ابن تيمية - وهو يتحدث عن الأسماء التي تختلف دلالتها بالإطلاق والتقييد والتجريد والاقتران-: (وكذلك لفظ التلاوة، فإنها إذا أطلقت في مثل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ تناولت العمل به، كما فسره بذلك الصحابة والتابعون، مثل ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وغيرهم، قالوا: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾: يتبعونه حق اتباعه، فيحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه.

وقيل: هو من التلاوة بمعنى الاتباع، كقوله: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾، وهذا يدخل فيه من لم يقرأه).[٢]

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٤/٣٥.

(٢) الإيمان ص ١٥٩، وانظر: مجموع الفتاوى ١٥/٣٩٠. ٣٩١.

هذا التفصيل من ابن تيمية، يشير إلى أنه يرى شمولية مفهوم حق التلاوة، وأنه يتضمن المسارين معا: قراءة القرآن، والعمل به، وأن الآثار المروية في تفسير التلاوة الحقة بالعمل والاتباع، ليست بمعزل عن الذكر اللساني بقراءة آيات القرآن، باعتبار ذلك جزءا من دائرة العمل بالقرآن، وباعتباره أيضا أداة للفهم والاتعاظ، المعين على حسن الاتباع.

وفي فضائل القرآن لأبي عبيد بابان في هذا المعنى، أحدهما: باب ما يؤمر به حامل القرآن من تلاوته: بالقراءة والقيام به في الصلاة، والثاني: باب ما يوصف به حامل القرآن من تلاوته: بالاتباع والطاعة له والعمل به[1]، وذلك يدل على تعميم معنى التلاوة للقراءة والاتباع، ومن ثم كان لكل منهما باب مستقل.

كما أن ذلك يشير إلى نفي التضاد بين تفسير التلاوة الحقة بالاتباع، وبين القول بعموم مفهوم التلاوة وشموليته، وذلك باعتبار أن القراءة تمثل بعض المعنى وفردا من أفراد العموم فيه.

وعليه فإن هذا القول بعموم المعنى لا يتعارض مع المروي عن بعض الصحابة والتابعين في تفسير حق التلاوة بحق الاتباع.

ويشهد لذلك أيضا ما رواه ابن جرير عن قتادة في ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ قال: (يتبعونه حق اتباعه)، ثم فسر هذا المفهوم بقوله: (اتباعه:

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد ص ٣٤، ٣٦.

يحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويقرؤونه كما أنزل)[1]، فجعل حسن القراءة جزءا مما تشمله دائرة هذا المفهوم: حق الاتباع للكتاب العزيز.

كما أن المروي عن ابن مسعود رضي الله عنه يؤيد هذا الاتجاه في الجمع بين القولين، فقد روى ابن جرير وغيره عنه رضي الله عنه قال: (والذي نفسي بيده إن حق تلاوته: أن يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزل الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئا على غير تأويله)[2]، فجمع رضي الله عنه في عبارته بين حق القرآن من حيث اللفظ، وحقه من حيث اللازم والمقتضى، وكلاهما مما يحتمله التعبير القرآني: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾.

وقد حرر ذلك ابن القيم فقال في بيان المعنى: (والمعنى يتبعون كتاب الله حق اتباعه)، وبعد أن أورد بعض الآيات المشابهة قال: (فحقيقة التلاوة في هذه المواضيع هي التلاوة المطلقة التامة، وهي تلاوة اللفظ والمعنى، فتلاوة اللفظ جزء مسمى التلاوة المطلقة، وحقيقة اللفظ إنما هي الاتباع).[3]

•• أركان حق التلاوة.

من خلال ما سبق من عبارات المفسرين في المراد بحق التلاوة، يتبين أن الأقرب. والعلم عند الله تعالى. هو القول بتعميم المعنى، بحيث يشمل

(١) تفسير الطبري ١/٥٢١.
(٢) تفسير الطبري ١/٥١٩، ٥٢١، وانظر: تفسير ابن كثير ١/١٦٣، الدر المنثور ١/٢٧٢، ٢٧٣.
(٣) مفتاح دار السعادة ١/٥٤، ٥٥.

قول الله جل وعلا: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ الأمرين معا:

ما يتعلق بجانب القراءة لآيات القرآن، وترتيل ألفاظه، والذكر اللساني به نظرا أو عن ظهر قلب.

وما يتعلق بجانب الاتباع لمدلول تلك الآيات، وتحقيق مرادها، والعمل بمقتضاها.

وذلك باعتبارين:

أولهما: أن اللفظ القرآني ﴿يَتْلُونَهُۥ﴾ محتمل لكلا الوجهين من حيث الأصل اللغوي.

وثانيهما: أن هذين الوجهين بينهما علاقة تضمن وتلازم.

فحق الاتباع للكتاب العزيز يتضمن القراءة للكلمات، والترتيل للآيات، والتفهم للمعاني، والعلم بالأحكام، والتأثر بالوعد والوعيد والعظات، إذ القرآن الكريم يدعو إلى ذلك ويحث عليه.

ولذا قال الراغب: (وأما قوله: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ فاتباع له بالعلم والعمل).[1]

وحق القراءة للكتاب العزيز يجمع بين ترتيل اللفظ، وتدبر المعنى، والاتعاظ بمدلول الآية.

ولذا قال الغزالي: (وتلاوة القرآن حق تلاوته: هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب.

(١) المفردات ص٨٢.

فحظ اللسان: تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل: تفسير المعاني، وحظ القلب: الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار.

فاللسان يرتل، والعقل يترجم، والقلب يتعظ).[1]

ومقتضى ذلك ولازمه: الخضوع والاستجابة والانقياد.

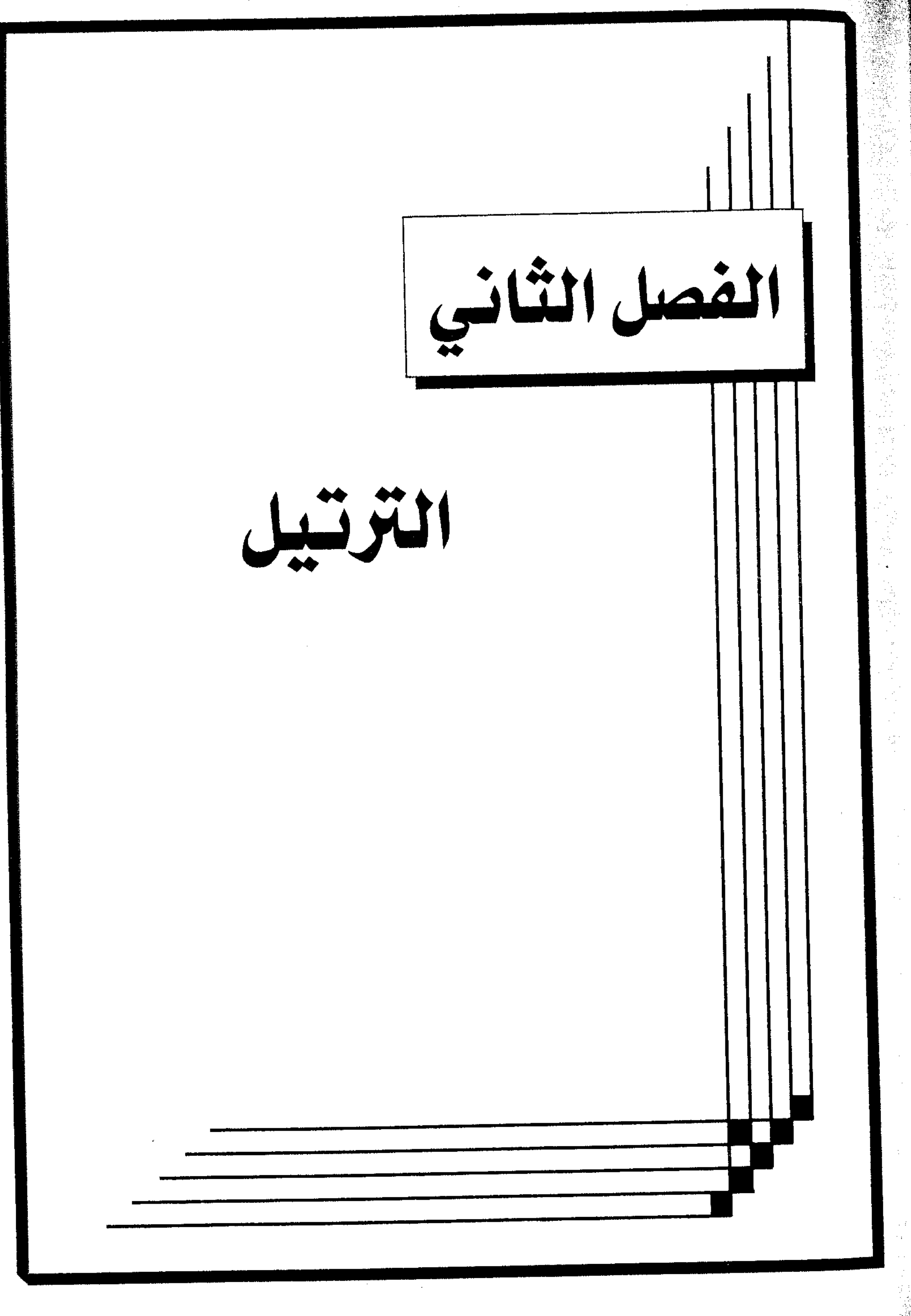
ولذا أتبع ابن عطية قول القائلين بأن معنى ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾: يقرؤونه حق قراءته، بقوله: (وهذا أيضا يتضمن الاتباع والامتثال).[2]

إن تلاوة القرآن الكريم حق تلاوته، تتمثل في أركان ثلاثة، إذا استجمعها المسلم في علاقته بالكتاب العظيم، كان له رجاء في رحمة الله، أن يكون من المشمولين بوصف الثناء: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾:

- قراءة مرتلة يبتغي بها وجه الله جل وعلا.
- يصاحبها تدبر وتذكر واتعاظ.
- ويعقبها عزم صادق على العمل والاتباع، والاستقامة والامتثال.

(١) إحياء علوم الدين ٢٨٧/١، وانظر: البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٨٠. ١٨١.

(٢) تفسير ابن عطية ٤٧٠/١. ٤٧١، وانظر: جمال القراء ٩١/١.



الفصل الثاني

الترتيل

الترتيل - في كلام أهل اللغة[1] - مأخوذ من الرتل، وهو وصف يطلق على تناسق الشيء واستقامته، وعلى حسن اتساق الأمر وانتظامه، كما يطلق على الحسن من الكلام، والطيب من كل شيء.

والترتيل في الكلام: تبيينه والتمهل فيه، يقال: رتل كلامه ترتيلا وترتل فيه، أي: تمهل وترسل فيه، وأبانه وأحسن تأليفه.

وأصل الترتيل في الأسنان، وهو تفلجها، يقال: ثغر رتل - بسكون التاء وفتحها وكسرها - ومرتل: إذا كان مفلجا، والثغر المفلج: هو ما كانت الأسنان فيه غير متصلة، ولا متلاصقة بحيث يركب بعضا بعضا، بل بينها افتراق لطيف، مع اتساق واستواء وحسن تنضيد.

ومن هنا شبهت القراءة المتأنية المتمهلة، بحروفها البينة وحركاتها الواضحة، بالثغر المرتل.

يقول الزمخشري في بيان وجه هذا التشبيه: (يقال: رتل القراءة وترتل فيها، إذا ترسل واتأد وبين الحروف، من قولهم: ثغر رتْل ورتِل، إذا كان مفلجا، لأن المترسل في قراءته كأن له عند كل حرف شبه وقفة، فشبه ذلك

---

(١) انظر: تهذيب اللغة ١٤/٢٦٨ - ٢٦٩، ترتيب القاموس ٢/٣٠٠ - ٣٠١، لسان العرب ٣/١٥٧٨.

بتفليج الثغر، والذي يسرع فيها كأنه يضم الحروف بعضها إلى بعض، ويرصها رصا، فشبه ذلك باللصص).(١)

ولذا قال ابن قتيبة: (والترتيل في القراءة: التبيين لها، كأنه يفصل بين الحرف والحرف).(٢)

وقال الراغب: (الرتل اتساق الشيء وانتظامه على استقامة، يقال: رجل رتل الأسنان، والترتيل: إرسال الكلمة من الفم بسهولة واستقامة).(٣)

يقول ابن الجزري: (أما الترتيل: فهو مصدر من رتل فلان كلامه، إذا أتبع بعضه بعضا على مكث)، ثم قال: (وحده: ترتيب الحروف على حقها في تلاوتها بتلبث فيها).(٤)

وقد ورد لفظ الترتيل في آيتين من الكتاب العزيز:

الآية الأولى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾. [المزمل: ٤].

جاء فعل الترتيل في هذه الآية بصيغة الأمر: (رتل)، مؤكدا بالمصدر: (ترتيلا)، ليدل على مزيد عناية واهتمام.

---

(١) الفائق في غريب الحديث ٢/٣٤ . ٣٥، و(اللصص: تقارب ما بين الأضراس حتى لا ترى بينها خللا). لسان العرب ٥/٤٠٣٢ .

(٢) تفسير غريب القرآن ص٢٦٢، وانظر: النهاية في غريب الحديث ٢/١٩٤، تفسير القرطبي ١/١٥، تفسير الفخر الرازي ٢٢/٧٩، ٣٠/١٧٣ .

(٣) المفردات ص١٨٧ .

(٤) التمهيد ص ٦٠ .

عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية قال: (بينه تبيينا).(١)

وعن سعيد بن جبير قال: (معناه: فسره تفسيرا).(٢)

والتبيين والتفسير هنا لا يعني البيان المتعلق بكشف المعنى وإيضاح المراد، وإنما المقصود التفسير المتعلق بالنطق والأداء، بحيث تظهر الألفاظ، وتتبين الكلمات، وتتميز الحروف، فلا تختلط أو تتداخل أثناء تلاوة الآيات.

ولذا قال ابن العربي تعقيبا على رواية سعيد بن جبير: (يريد تفسير القراءة، حتى لا يسرع فيه فيمتزج بعضه ببعض).(٣)

ويدل على ذلك ما رواه ابن جرير وغيره(٤) عن الحسن في معنى الآية قال: (اقرأه قراءة بينة)، وعن مجاهد: (ترسل فيه ترسلا)، (بعضه على إثر بعض على تؤدة).

وما نقله القرطبي وغيره من قول الضحاك: (اقرأه حرفا حرفا).(٥)

وما أورده ابن الجزري من تفسير علي رضي الله عنه للترتيل بقوله: (الترتيل هو تجويد الحروف، ومعرفة الوقوف)(٦)، فإن الشطر الأول من هذا الأثر:

---

(١) تفسير الطبري ٢٩/١٢٦، تفسير ابن أبي حاتم ١٠/٣٣٨٠، الدر المنثور ٨/٣١٣.

(٢) تفسير الطبري ٢٩/١٢٧، الدر المنثور ٨/٣١٤.

(٣) أحكام القرآن ٤/٣٢٧، وانظر: إبراز المعاني بالأداء القرآني ص ٨٨.

(٤) تفسير الطبري ٢٩/١٢٦ . ١٢٧، الدر المنثور ٨/٣١٤، وانظر: فتح الباري ١٩/١٠٦.

(٥) تفسير القرطبي ١٩/٢٦، وانظر: تفسير السمرقندي ٣/٤٨٦، تفسير السمعاني ٦/٧٧، التمهيد ص ٦١.

(٦) التمهيد ص ٦٠، النشر ١/٢٠٩، الإتقان ٢/٥٤١.

(تجويد الحروف) يعني القراءة البينة، الواضحة المترسلة، المنافية للعجلة والتداخل، المعينة على الفقه والتدبر.

وكلام المفسرين في الآية الكريمة لا يخرج عن هذه المعاني المتقاربة.

يقول ابن جرير: (يقول ﷺ: وبين القرآن إذا قرأته تبيينا، وترسل فيه ترسلا).[١]

ويصف الزجاج كيفية هذا التبيين بقوله: (والتبيين لا يتم بأن يعجل في القرآن، وإنما يتم بأن تبين جميع الحروف، وتوفى حقها في الإشباع).[٢]

ويقول الزمخشري: (ترتيل القرآن قراءته على ترسل وتؤدة: بتبيين الحروف وإشباع الحركات حتى يجيء المتلو منه شبيها بالثغر المرتل، وألا يهذه هذا ولا يسرده سردا حتى يشبه المتلو في تتابعه الثغر الألصّ).[٣]

وتبعهم ابن الجزري فقال في معنى الآية الكريمة: (قال علماؤنا: أي: تلبث في قراءته، وافصل الحرف من الحرف الذي بعده، ولا تستعجل فتدخل بعض الحروف في بعض).[٤]

واعتبر القرطبي أن دائرة الترتيل في الآية الكريمة تشمل معنى التدبر للآيات، إضافة إلى معنى التجويد للألفاظ ترسلا وتبيينا.

---

(١) تفسير الطبري ١٢٦/٢٩، وانظر: غريب القرآن للسجستاني ص ٢٤٢.
(٢) معاني القرآن ٢٤٠/٥.
(٣) تفسير الزمخشري ٦٣٨/٤ (مختصرا)، وانظر: غرائب القرآن ٧٦/٢٩، تفسير السمعاني ٧٧/٦. (والهذ: سرعة القراءة) ترتيب القاموس ٤٩٥/٤، قال ابن حجر: (الهذ هو الإسراع المفرط، بحيث تخفى كثير من الحروف، أو لا تخرج من مخارجها) فتح الباري ١٠٧/١٩.
(٤) التمهيد ص٦١، وانظر: جمال القراء ٥٢٥/٢.

يقول القرطبي في تفسير الآية: (أي: لا تعجل بقراءة القرآن، بل اقرأه في مهل وبيان، مع تدبر المعنى)، ثم نقل عن مجاهد قوله: (أحب الناس في القراءة إلى الله أعقلهم عنه).[١]

ولعل ذلك باعتبار أن الترتيل وسيلة إلى التدبر، وسبيل إلى تعقل المعنى وفهمه.

ولذا قال ابن كثير في معنى الآية: (أي: اقرأه على تمهل، فإنه يكون عونا على فهم القرآن وتدبره).[٢]

يقول ابن حجر: (الترتيل في القراءة: تبيين حروفها، والتأني في أدائها، ليكون أدعى إلى فهم معانيها)، مقررا أن هذا الأمر بالترتيل في الآية الكريمة (إن لم يكن للوجوب يكون مستحبا).[٣]

غير أن من المهم التنبيه على أن اعتبار الأمر هنا للوجوب، لا يلزم منه إمرار الحكم وتعميمه على تطبيق جملة القواعد التجويدية المعروفة، فإن ذلك يحتاج إلى نظر واستدلال وتفصيل.

أما قوله تعالى: ﴿تَرْتِيلًا﴾ فهو مصدر مؤكد لفعل الأمر، يعظم من شأنه، ويعلي من مرتبته، ويوحي بأهميته وضرورته، ويشعر بحسن عاقبته وجزيل ثوابه.

---

(١)تفسير القرطبي ٢٦/١٩، وانظر: فتح القدير ٣١٦/٥.
(٢) تفسير ابن كثير ٤٣٤/٤.
(٣)فتح الباري ١٠٦/١٩.

قال الشوكاني: (وتأكيد الفعل بالمصدر يدل على المبالغة، على وجه لا يلتبس فيه بعض الحروف ببعض، ولا ينقص من النطق بالحرف من مخرجه المعلوم، مع استيفاء حركته المعتبرة).(١)

وقد امتثل رسول الله ﷺ لهذا الأمر، فكانت قراءته ترتيلا، لا هذَّ فيها ولا عجلة، بل هي قراءة مفسرة واضحة، (يقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها).(٢)

• ومما يتصل بمعنى هذه الآية الكريمة ما تضمنه قول الله جل وعلا: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾. [الإسراء: ١٠٦].

ولذا فسر عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هذه الآية بتلك، فقد روى ابن جرير عنه في: (لتقرأه على الناس على مكث) قال: (التفسير الذي قال الله: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ تفسيره).(٣)

وهو تفسير للقرآن بالقرآن، يستدل به على أن قراءة القرآن على مكث وترتيله لا يفترقان في المعنى.

وعن مجاهد أيضا تفسير المكث بالترتيل(٤)، وبالتؤدة(٥)، والمعنى واحد.

---

(١) فتح القدير ٣١٦/٥، وانظر: تفسير الزمخشري ٦٣٨/٤، تفسير الفخر الرازي ١٧٣/٣٠، التمهيد ص ٦١.

(٢) رواه مسلم من حديث أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها في كتاب صلاة المسافرين، باب جواز النافلة قائما وقاعدا ٥٠٧/١.

(٣) تفسير الطبري ١٧٩/١٥.

(٤) تفسير الطبري ١٧٩/١٥، تفسير مجاهد ٣٧١/١.

(٥) تفسير الطبري ١٧٩/١٥، تفسير الصنعاني ٣٩١/٢.

وقد عنون البخاري في صحيحه لأحد أبواب كتاب فضائل القرآن فقال: (الترتيل في القراءة)، أورد فيه الآيتين الكريمتين: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾، ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾.(١)

وذلك يشير إلى تفسيره المكث بالترتيل.

وتابعه صاحب الأضواء فقال: (بين جل وعلا أنه بين هذا القرآن لنبيه، ليقرأه على الناس على مكث، أي: مهل وتؤدة وتثبت، وذلك يدل على أن القرآن لا ينبغي أن يقرأ إلا كذلك، وقد أمر الله تعالى بما يدل على ذلك في قوله: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾).(٢)

وبه قال أهل التفسير.

يقول القرطبي: (﴿ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ أي: على ترسل في التلاوة وترتيل).(٣)

ويقول ابن جرير: (يقول: لتقرأه على الناس على تؤدة، فترتله وتبينه، ولا تعجل في تلاوته فلا يفهم عنك).(٤)

وفي كلام ابن جرير تنبيه إلى أن فهم المراد من كلام الله جل شأنه، هو مقصود المكث وترتيل القراءة، وهو ما قرره ابن الجوزي أيضا فقال:

---

(١) صحيح البخاري ١٩٢٤/٤.

(٢) أضواء البيان ٦٣٣/٣.

(٣) تفسير القرطبي ٢٢٠/١٠، وانظر: البحر المحيط ٨٧/٦.٨٨.

(٤) تفسير الطبري ١٧٩/١٥، وانظر: تفسير الزمخشري ٦٥٣/٢، التمهيد ص ٦١.

(والمعنى: على تؤدة وترسل، ليتدبروا معناه).[١]

وأضاف أبو السعود ثمرة الحفظ إلى ثمرة الفهم، فقال في معنى الآية: (على مهل وتثبت، فإنه أيسر للحفظ، وأعون على الفهم).[٢]

الآية الثانية: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾. [الفرقان: ٣٢].

هذه الآية الكريمة نزلت جوابا على شبهة قاصرة، يعترض فيها أهل الشرك على نزول القرآن مفرقا، بخلاف الكتب السماوية السابقة.[٣]

وقد تعددت أقوال المفسرين في المراد بقول الله سبحانه في الآية: ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾، بعضها مترادف أو متقارب، وجميعها منبثقة من الأصل اللغوي للفظ الترتيل.

ويمكن إيجازها في الآتي:

القول الأول: التفريق الزمني في تنزيل القرآن.

فترتيل القرآن في الآية الكريمة - على هذا القول - يعني تنزيله على رسول الله ﷺ مفرقا، يتبع بعضه بعضا، في فترة زمنية تقارب ثلاثة وعشرين عاما، تمتد من بعثته إلى وفاته ﷺ.

وهذا التفسير للفظ الترتيل مشمول بدائرته اللغوية، والمتضمنة معنى

---

(١) زاد المسير ٥/٦٨، وانظر: تفسير الواحدي ٢/٦٥٠.

(٢) تفسير أبي السعود ٥/١٩٩، وانظر: تفسير السمرقندي ٢/٣٣٢.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ٣/٣١٧.

(تفريق الشيء المتتابع).[١]، ولذا يطلق على الإنزال المتمهل شيئا بعد شيء.[٢]

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ قال: (كان الله ينزل عليه الآية، فإذا علمها نبي الله نزلت آية أخرى، ليعلمه الكتاب عن ظهر قلب، ويثبت به فؤاده).[٣]

وعنه رضي الله عنه في: ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ قال: (رسلناه ترسيلا)، (شيئا بعد شيء).[٤]، وعنه أيضا قال: (نزلناه عليك تنزيلا، قليلا قليلا).[٥]

وعن إبراهيم النخعي قال: (نزل متفرقا).[٦]

وعن الحسن قال: (كان ينزل آية أو آيتين أو آيات، كان ينزل جوابا لهم، إذا سألوا عن شيء أنزل الله جوابا لهم، وردًّا عن النبي ﷺ فيما يكلمونه، وكان بين أوله وآخره نحو من عشرين سنة).[٧]

وفسر السدي الترتيل في الآية بالتفصيل، قال: (فصلناه تفصيلا).[٨]

---

(١) تفسير ابن عطية ١١/٣٧، وانظر: تفسير القاسمي ١٢/٢٦٠.

(٢) انظر: التحفة القليبية ص ٦٧.

(٣) تفسير الطبري ١٩/١٠.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٨/٢٦٩٠، الدر المنثور ٦/٢٥٥.

(٥) الدر المنثور ٦/٢٥٥.

(٦) تفسير الطبري ١٩/١١، تفسير ابن أبي حاتم ٨/٢٦٩١، وانظر: الدر المنثور ٦/٢٥٥.

(٧) تفسير الصنعاني ٣/٦٩. ٧٠، وانظر: تفسير الطبري ١٩/١١، تفسير ابن أبي حاتم ٨/٢٦٩٠، الدر المنثور ٦/٢٥٥.

(٨) تفسير ابن أبي حاتم ٨/٢٦٩١، الدر المنثور ٦/٢٥٥.

وبعبارة السدي عبر بعض المفسرين عن المعنى، كالسمعاني، وأبي حيان.(١)

والظاهر أن مقصودهم: تفصيل التنزيل القرآني، أي: تنزيل الآيات مفرقة على رسول الله ﷺ، بعضها في أثر بعض.(٢)

وقد اختار ابن جرير هذا القول: تفريق النزول، في المقصود بالترتيل هنا، فقال في تفسير الآية الكريمة: (يقول: وشيئا بعد شيء علمناكه، حتى تحفظته).(٣)

وبه قال جمهور المفسرين.(٤)

القول الثاني: قراءة القرآن على رسول الله ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام على صفة الترتيل.

والترتيل على هذا القول وصف لذات التلاوة، وبهذا يفترق عن سابقه، إذ الترتيل هناك وصف لكيفية التنزيل القرآني.

---

(١) انظر: تفسير السمعاني ٤/١٨، البحر المحيط ٦/٤٩٧.

(٢) وهو ذات تعبير السمعاني في تفسير قول الله سبحانه: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾. الأنعام ١١٤، قال: (يعني خمسا خمسا، وعشرا عشرا، وهذ مثل قوله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾، أي: فصلناه لنثبت به فؤادك). تفسير السمعاني ٢/١٣٨، وانظر: في ظلال القرآن ٥/٢٥٦٣.

(٣) تفسير الطبري ١٩/١١.

(٤) انظر: تأويل مشكل القرآن ص ٢٥٢، معاني القرآن للنحاس ٥/٢٥، تفسير الزمخشري ٣/٢٧٨ . ٢٧٩، تفسير القرطبي ١٣/٢١، التسهيل ٣/٧٨، نظم الدرر ٥/٣١٦، تفسير أبي السعود ٦/٢١٦، غرائب القرآن ١٩/١٢، تفسير الجلالين ص ٤٧٤، التحفة القليبية ص ٦٧، فتح القدير ٤/٧٣، روح المعاني ١٩/١٥، تفسير السعدي ٣/٤٤٠.

ويحتمل أن يكون هذا هو مراد الزجاج، بقوله في تفسير ﴿ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾: (أي: نزلناه على الترتيل، وهو ضد العجلة، وهو التمكث).(١)

وقول البغوي في باب كيفية القراءة: (وقوله ﷻ: ﴿ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ أي: أنزلناه مرتلا، وهو ضد المعجل).(٢)

وقول البيضاوي: (قرأناه عليك شيئا بعد شيء على تؤدة وتمهل).(٣)

وقول ابن الجزري: (أما الترتيل فهو مصدر من رتل فلان كلامه، إذا أتبع بعضه بعضا على مكث وتفهم من غير عجلة، وهو الذي نزل به القرآن، قال الله تعالى: ﴿ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾).(٤)

كما يحتمل أن يكون مرادهم ما يجمع بين هذا القول وسابقه، فيكون الترتيل وصفا للتنزيل القرآني على رسول الله ﷺ من جهة التفريق الزمني، ووصفا له أيضا من جهة كيفية القراءة على رسول الله ﷺ.

وقد أورد ابن جرير في تفسيره قولين، ثانيهما: أن (معنى الترتيل: التبيين والتفسير)، مستندا إلى ما رواه عن ابن زيد في قوله تعالى: ﴿ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ قال: (فسرناه تفسيرا) وقرأ: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾.(٥)

---

(١) معاني القرآن ٤/٦٦، ونقله عنه أبو جعفر النحاس في إعراب القرآن ٣/١٦٠، وبنحو عبارته قال ابن الجوزي في زاد المسير ٦/١٤.

(٢) شرح السنة ٤/٤٨١.

(٣) تفسير البيضاوي ٢/١٤٠.

(٤) النشر ١/١٦٥، واستدل المرصفي بالآية الكريمة على (أن الترتيل صفة تكلم الله بالقرآن). هداية القاري ص ٤٠، ولم أقف على القول بذلك فيما اطلعت عليه من كلام أهل التفسير.

(٥) تفسير الطبري ١٩/١١، تفسير ابن أبي حاتم ٨/٢٦٩١.

ويقاربه ما رواه ابن أبي حاتم وغيره عن قتادة قال: (بيناه تبيينا).(١)

وبتفسير قتادة عبر بعض المفسرين عن المعنى.(٢)

قال الواحدي: (بيناه تبيينا في تثبت ومهلة).(٣)

والمراد بالتبيين والتفسير ما يتعلق بنزول جبريل عليه السلام بآيات القرآن، يتلوها على رسول الله ﷺ، من حيث التمهل والترسل، والإبانة وحسن الأداء.(٤)

ويشهد لذلك استدلال ابن زيد بآية المزمل ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾، إثر تفسيره للترتيل في ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ بالتفسير.

ويمكن أن يكون مرادهم بالتبيين ما يتعلق باتساق معاني القرآن وانتظامها، وجودة مضامينه واتساقها، وتفصيل أحكامه ووضوحها.

وكلا الاحتمالين صحيح وحق، من حيث المعنى والمدلول، ومن حيث دلالة لفظ الترتيل في سياق الآية عليه، والعلم عند الله تعالى.

القول الثالث: الأمر بترتيل القرآن.(٥)

وعلى هذا القول تكون آية المزمل: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾، تأكيدا وتوضيحا لقول الله تعالى في هذه الآية: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٢٦٩١/٨، الدر المنثور ٢٥٤/٦.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٥٣٧/٢، تفسير النسفي ٥٤٠/٢.

(٣) تفسير الواحدي ٧٧٨/٢.

(٤) انظر: إبراز المعاني بالأداء القرآني ص ٨٨.

(٥) انظر: تفسير أبي السعود ٢١٦/٦، روح المعاني ١٥/١٩.

وهو اختيار النيسابوري، قال: (ومعنى (رتلناه): أمرنا بترتيل قراءته).(١)

واحتمله عدد من المفسرين.(٢)

ومال الشنقيطي - فيما يبدو - إلى هذا القول، وذلك باعتبار استدلاله بهذه الآية: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ على الأمر بترتيل الكتاب العزيز، إضافة إلى الآيتين السابقتين: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾، ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾.(٣)

تلك أبرز الأقوال في معنى: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾، وكلها محتملة من حيث الأصل اللغوي للفظ الترتيل، ومن حيث توافقها مع السياق القرآني.

يقول ابن عاشور: (والترتيل يجوز أن يكون حالة لنزول القرآن، أي: نزلناه مفرقا منسقا في ألفاظه ومعانيه غير متراكم، فهو مفرق في الزمان، ومفرق في التأليف بأنه مفصل وواضح.

ويجوز أن يراد ب(رتلناه) أمرنا بترتيله، أي: بقراءته مرتلا، أي: بتمهل، بأن لا يعجل في قراءته، بأن تبين جميع الحروف والحركات بمهل، وهو المذكور في سورة المزمل في قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾).(٤)

---

(١) غرائب القرآن ١٢/١٩.

(٢) انظر: تفسير الزمخشري ٢٧٨/٣، تفسير النسفي ٥٤٠/٢، تفسير ابن عاشور ٢٠/١٩.

(٣) انظر: أضواء البيان ٦٣٣/٣.

(٤) تفسير ابن عاشور ٢٠/١٩ (مختصرا)، وانظر: تفسير النسفي ٥٤٠/٢.

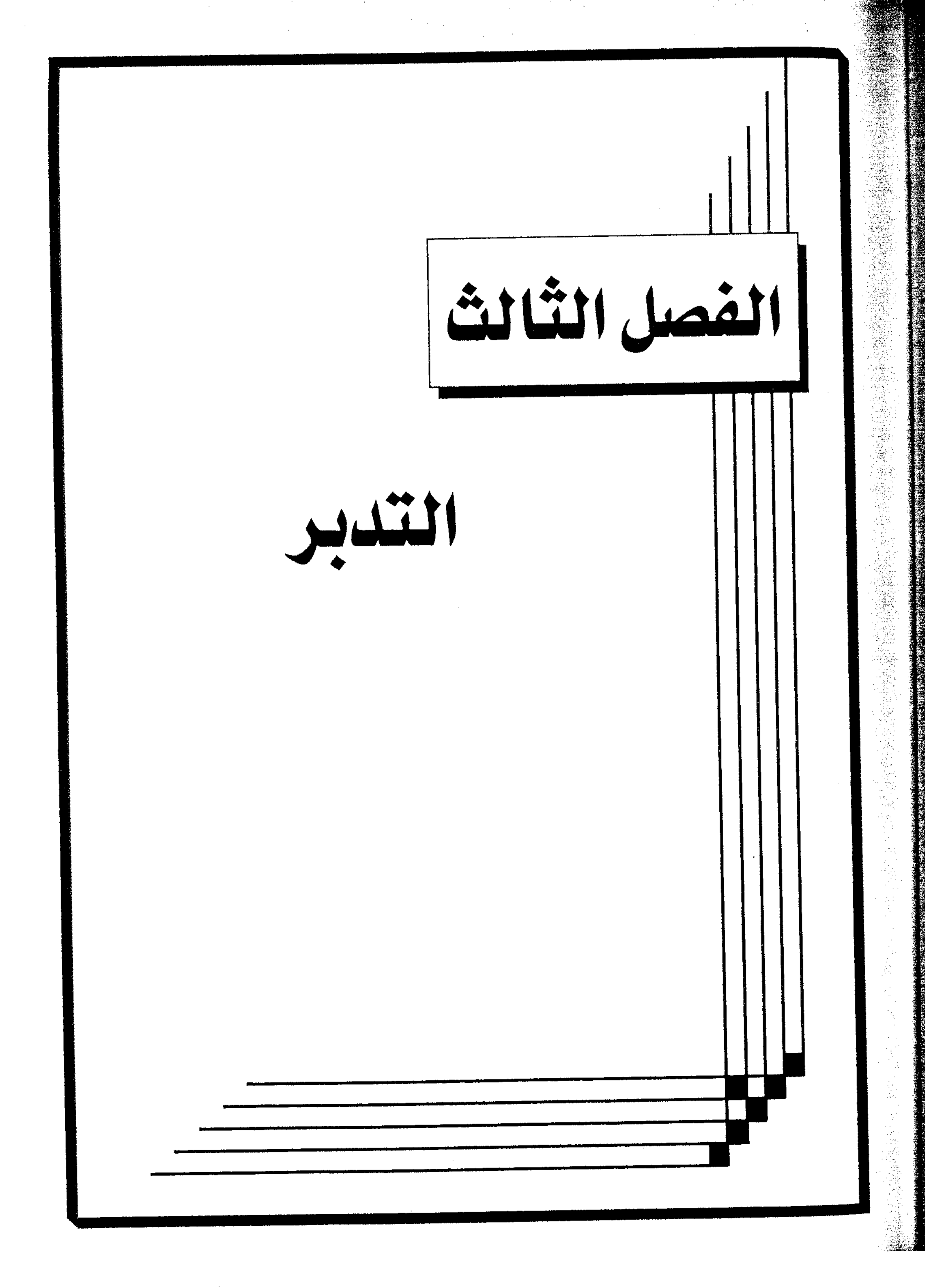
إن لفظ الترتيل يتضمن معنى الفصل والتمييز، وحسن البيان والتأليف، وهو معنى يتحقق في النزول القرآني، كما يتحقق في كيفية تبليغه إلى رسول الله ﷺ، وكلاهما - والعلم عند الله تعالى - مما يمكن أن يشمله معنى الآية الكريمة ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾.

وذلك يتضمن ثلاثة أنواع من الفصل والتفسير والتبيين، تحققت في واقع الكتاب العزيز:

أولها متعلق باللفظ القرآني، فقد تنزل القرآن على رسولنا ﷺ بواسطة جبريل الطَّيْكِلا على صفة الترتيل مبين الألفاظ مجود الحروف، وبلغه ﷺ إلى الناس وقرأه على تلك الكيفية أيضا، امتثالا لأمر الله سبحانه: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾.

وثانيها متعلق بالمعنى القرآني، فالقرآن واضح البيان، محكم المعنى، مفصل الأحكام، تعتمد فيه الفروع على الأصول، في تشريع متدرج البنيان، مترسل التأسيس: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٣]، لم تختلط معانيه فلا تتميز، ولم تتداخل أحكامه فلا تستبين، ولم تضطرب أوامره فتختلف أو تتناقض، بل هو متسق في بيانه، مؤتلف في أحكامه ومعانيه.

وثالثها متعلق بالنزول القرآني، فلم ينزل القرآن مكتملا منذ البداية، بل كان تنزيله متمهلا مترسلا من حيث الزمن، إذ تفرق في فترة تزيد على عشرين عاما، وبهذا التفصيل الزمني تحقق المقصودان السابقان: ترتيل اللفظ لتمكين القراءة والحفظ، وترتيل المعنى لتمكين الفهم وتيسير الاتعاظ والقبول: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾. [الإسراء: ١٠٦].



يطلق التدبر - في الأصل - على التفكر في مآلات الأمور، والنظر في عواقبها وآثارها، ثم اتسع استعماله اللغوي ليشمل عموم التفهم والتفكر، ومطلق النظر والتأمل.

قال ابن منظور: (دبر الأمر وتدبره: نظر في عاقبته)، وقال أيضا: (التدبير في الأمر: أن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته، والتدبر: التفكر فيه).[(١)]

واعتبر المناوي التدبر والتفكر متقاربين في المعنى غير مترادفين، فقال: (التدبر: النظر في دبر الأمور، أي: عواقبها، وهو قريب من التفكر، إلا أن التفكر تصرف بالنظر في الدليل، والتدبر تصرف بالنظر في عواقبه).[(٢)]

وقال الألوسي: (أصل التدبر: التأمل في أدبار الأمور وعواقبها، ثم استعمل في كل تأمل، سواء كان نظرا في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه).[(٣)]

أما مفهوم التدبر المتصل بالكتاب العزيز، فيراد به: تأمل آيات القرآن الكريم، والنظر في مدلولاتها، وإعمال الفكر فيما تتضمنه من بلاغ وخبر، أو حجة وبرهان، أو منهج وحكم، وما تحتويه من أمر ونهي، أو ترغيب

---

(١) لسان العرب ١٣١٧/٢، ١٣٢١، وانظر: معاني القرآن للزجاج ٨٢/٢، ترتيب القاموس ١٤٥/٢، ١٤٧.

(٢) التعاريف ص ١٦٧، وانظر: التعريفات ص ٧٦.

(٣) روح المعاني ٩٢/٥، وانظر: تفسير أبي السعود ٢٠٧/٢.

وترهيب، أو وعد ووعيد، ونحو ذلك من أنواع الخطاب القرآني، مقرونا بالاجتهاد في تفهم المعاني، وإدراك المقاصد، واستيعاب المراد، ومن ثم التذكر والتأثر والاتعاظ.

وقد ورد لفظ التدبر في أربع آيات من كتاب الله جل وعلا، ثلاث منها تنكر على المخالفين إعراضهم عن تدبر كلام الله جل شأنه والتفكر في معانيه، بينما تقرر الرابعة أن التدبر مقصود عظيم لنزول القرآن الكريم:

الآية الأولى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾. [ص: ٢٩].

والكتاب هو القرآن، وصفه الله بأنه مبارك: كثير خيره، عظيم نفعه وأثره، وفير ثوابه وأجره، به يسلك المؤمن سبيل السعادة في الدنيا، وبه ينال الفوز في الأخرى.

هذا الكتاب المبارك أنزله الله جل شأنه، ليتفكر الناس في آياته، فيتأملوا ألفاظها، ويمعنوا النظر في دلالاتها ومراميها، ليحصل لهم بذلك تفهم معانيها، ويتحقق لهم تعقل مرادها ومضامينها، وليؤول بهم هذا التدبر إلى أثر جليل، ويسوقهم إلى مقصد عظيم، ذلكم هو التأثر والاعتبار، والتذكر والاتعاظ ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، أي: أصحاب العقول السالمة من شوائب الانحراف، التي تمنع من شهود الحق وقبوله، والبريئة من عوارض الخلل، التي تحول عن الاستسلام لداعي الهدى وإجابته.

يقول ابن عثيمين: (تدبر الآيات مطلق: ليدبروا آياته، والتذكر به خاص بمن؟ بأولي الألباب: العقلاء، لأنه كم من إنسان يعرف معنى

القرآن ويستنتج منه الفوائد العظيمة، لكن لا يتذكر إلا أولوا الألباب).[1]

إن هذه الآية الكريمة تشير إلى أهمية اقتران التلاوة بالتدبر والتذكر، بحيث يتلازم الأمران: محاولة تصحيح اللفظ، ومحاولة تفهم المعنى والاتعاظ به.

قال الشوكاني: (وفي الآية دليل على أن الله سبحانه إنما أنزل القرآن للتدبر والتفكر في معانيه، لا لمجرد التلاوة دون تدبر).[2]

ذلك أن التلاوة الواعية المصحوبة بالتأمل والتدبر، سبيل إلى الاتعاظ والتذكر، واجتماع الأمرين: التدبر والتذكر، سبيل إلى التصديق والقبول، وإلى الاستجابة والامتثال.

يقول ابن جرير: (﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يقول: ليتدبروا حجج الله التي فيه، وما شرع فيه من شرائعه، فيتعظوا ويعملوا به).[3]

الآية الثانية: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾. [المؤمنون: ٦٨].

والآية في أهل الشرك [4]، تنكر عليهم شرودهم عن تفهم ما يتلى

(١) شرح أصول في التفسير ص ١٩. ٢٠، وانظر: البحر المحيط ٣٩٦/٧.
(٢) فتح القدير ٤٣٠/٤.
(٣) تفسير الطبري ١٥٣/٢٣.
(٤) انظر: تفسير الطبري ٤١/١٨، البحر المحيط ٤١٣/٦، تفسير ابن كثير ٢٤٩/٣. ٢٥٠، أضواء البيان ٧٩٩/٥.

عليهم، وتوبخهم على صدودهم عن الانتفاع بما جاءهم به رسول الله ﷺ من كلام ربهم سبحانه.

ومن ثم فهو تقرير لأحد عوامل إصرارهم على التكذيب، وإقامتهم على الكفر: الامتناع عن تدبر القول: القرآن الكريم، إذ لو تدبروه بصدق، ولو تأملوه بتجرد، لعرفوا أنه المعجزة الواضحة، ولآمنوا بأنه الحق من الله جل وعلا، ولأيقنوا بأن اتباعه وتصديق الرسول الذي جاءهم به أمر لازم، لا يمكنهم الانفكاك عنه.

الآية الثالثة: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾. [النساء: ٨٢].

نزلت هذه الآية ـ ابتداء ـ في المنافقين[١]، تعيب عليهم إعراضهم عن القرآن، وتستقبح نفورهم من التفكر في معانيه، والتأمل فيما يتضمنه: من دلائل الإيمان، وبراهين الإعجاز، وموجبات اليقين.

ومن ذلك ما يشتمل عليه هذا الكتاب العزيز من بيان وتفصيل، في دقة وإحكام، وتوافق وانسجام، سليما من اللبس والعوج، بعيدا عن التناقض والتضاد، لا تختلف أجزاؤه، ولا تتعارض أحكامه، ولا يكذب بعضه بعضا، مع تفرق زمان نزوله، بل يتأسس بنيانه على الائتلاف والتناسق، وعلى الاتساق والتناسب، يؤيد آخره أوله، ويصدق لاحقه

(١) انظر: تفسير الطبري ١٧٩/٥، تفسير القرطبي ١٨٧/٥.

سابقه، سواء كان ذلك في أصوله وعقائده، أو في قصصه وأخباره، أو في شرائعه وأحكامه، أو في وعده ووعيده، أو في تذكيره ومواعظه.

يقول الله جل وعلا: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾.

(أي لو كان من كلام البشر، لدخله ما في كلام البشر من القصور، وظهر فيه التناقض والتنافي الذي لا يمكن جمعه، إذ ذلك موجود في كلام البشر، والقرآن منزه عنه، إذ هو كلام المحيط بكل شيء علما).[١]

الآية الرابعة: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾. [محمد: ٢٤].

والآية ـ كسابقتها ـ نزلت في المنافقين أيضا، وهما بعد ذلك عامتان في الحث والحض على تدبر القرآن الكريم، وفي ذم المعرضين عن تأمله وتفهم معانيه.

غير أن هذه الآية تشتمل على زيادة بيان، يتمثل في تحديد العامل في مجافاتهم عن التدبر الموصل إلى الاهتداء: ﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾.

(١) تفسير ابن عطية ١٤٧/٤، قال: (فإذا عرضت لأحد شبهة، وظن اختلافا في شيء من كتاب الله، فالواجب أن يتهم نظره، ويسأل من هو أعلم منه)، وروى ابن جرير في تفسيره ١٧٩/٥ عن ابن زيد في الآية قال: (إن القرآن لا يكذب بعضه بعضا ولا ينقض بعضه بعضا، ما جهل الناس من أمره فإنما هو من تقصير عقولهم وجهالتهم، وقرأ: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾).

يقول ابن جرير في تفسير الآية: (يقول تعالى ذكره: أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التي يعظهم بها في آي القرآن الذي أنزله على نبيه عليه الصلاة والسلام، ويتفكرون في حججه التي بينها لهم في تنزيله، فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون).[١]

و(أم) في قول الله سبحانه: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ بمعنى (بل).

قال أبو السعود: ((أم) منقطعة، وما فيها من معنى بل للانتقال من التوبيخ بعدم التدبر، إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة، لا تقبل التدبر والتفكر).[٢]

والأقفال جمع قفل، وهو الحديد الذي يغلق به الباب، سمي بذلك لأن فيه شدا وشدة، مأخوذ من القفل، الدال على الصلابة في الشيء.[٣]

قال الراغب: (وقد جعل ذلك مثلا لكل مانع للإنسان من تعاطي فعل، فيقال: فلان مقفل عن كذا).[٤]

ولذا يقول ابن كثير في تفسير الآية: (أي: بل على قلوب أقفالها، فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه).[٥]

---

(١) تفسير الطبري ٢٦/٥٧، وانظر: المنافقون في القرآن ص ١٩١.
(٢) تفسير أبي السعود ٨/٩٩، وانظر: تفسير السمعاني ٥/١٨١، تفسير البغوي ٤/١٨٤، تفسير ابن عطية ١٣/٤٠٩، البحر المحيط ٨/٨٣، روح المعاني ٢٦/٧٤.
(٣) انظر: المشوف المعلم ٢/٦٥٣ . ٦٥٤، مقاييس اللغة ص ٨٦٦، لسان العرب ٥/٣٧٠٧، ترتيب القاموس ٣/٦٦٩، وللقفل أصل آخر يدل على معنى الرجوع من السفر.
(٤) المفردات ص ٤١٠، وانظر: بصائر ذوي التمييز ٤/٢٨٧.
(٥) تفسير ابن كثير ٤/١٨٠، وانظر: تفسير الطبري ٢٦/٥٧، تفسير القرطبي ١٦/١٦٣.

ويقول صاحب الأضواء: (أنكر تعالى عليهم إعراضهم عن تدبر القرآن، وبين أن قلوبهم لا تنفتح لخير، ولا لفهم قرآن).[١]

فالآية تتضمن تشبيها لقلوب هؤلاء المنافقين، وقلوب من يشاركهم وصفهم، بالمحل المغلق الذي لا يمكن الولوج إليه، وفي ذلك تقرير بأن قلوبهم مقفلة عن الخير والإيمان والهدى، مغلقة عن فهم كلام الله جل وعلا وما فيه من الموعظة والتذكير، غير قابلة للتفكر والتدبر بحيث تعقل الحق وتفهمه.

يقول ابن الجوزي: (والمراد أن القلب يكون كالبيت المقفل، لا يصل إليه الهدى).[٢]

ويقول ابن القيم: (كأن القلب بمنزلة الباب المرتج، الذي قد ضرب عليه قفل، فإنه إن لم يفتح القفل، لا يمكن فتح الباب والوصول إلى ما وراءه، وكذلك ما لم يرفع الختم والقفل عن القلب، لم يدخل الإيمان ولا القرآن).[٣]

وقد أوضح سياق الآيات منشأ تلك الأقفال لقلوب أولئك المنافقين، وسببها الذي استحقت به عقاب الله جل شأنه[٤]، وذلك في قول الله

---

(١) أضواء البيان ٧/٤٢٨.
(٢) زاد المسير ٧/١٥٤، وانظر: فتح القدير: ٥/٤١.
(٣) شفاء العليل ص ٢٠٨، وانظر: ص ١٩٨ . ١٩٩، تفسير القرطبي ١٦/١٦٣، نظم الدرر ٧/١٧٠.
(٤) انظر: تفسير الطبري ٢٦/٥٨، تفسير ابن كثير ٤/١٨٠، نظم الدرر ٧/١٧٠ . ١٧١.

سبحانه في الآية التالية لهذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾.

فقد عاندوا الحق بعد ما عرفوه، وتأخروا إلى الكفر بعد ما اتضح لهم طريق الإيمان، ورفضوا الهدى وقد تبينت لهم معالمه، وانكشفت دلائله، وظهرت براهينه وحججه، وعبدوا الشيطان بطاعتهم له فيما زينه وحسنه، من الثبات على الكفر والنفاق، واستحباب الدنيا وتقديمها على الآخرة.

• هذا الاستنكاف عن تدبر المواعظ القرآنية، يمثل جزءا من دائرة الإعراض عن الكتاب العزيز، والذي استحق المتصفون به الذم والتوبيخ، في مثل قول الله سبحانه:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾. [الكهف: ٥٧].

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾. [السجدة: ٢٢].

يقول صاحب الأضواء: (ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم، أي: تصفحها وتفهمها وإدراك معانيها والعمل بها، فإنه معرض عنها غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات، إن كان الله أعطاه فهما يقدر به على التدبر).(١)

•• وإضافة إلى تلك الآيات الأربع التي تضمنت لفظ التدبر، فقد اشتمل

(١) أضواء البيان ٧/٤٢٩.

القرآن الكريم على آيات أخرى، تقاربها في معانيها، وتتصل بها في مقاصدها:

• يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾. [يوسف: ٢].

﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾. [الزخرف: ٣].

أي: لعلكم تعقلون معاني الآيات، وتفهمون ما تشتمل عليه من الأخبار والمواعظ والأحكام، وتتأملون ما تحتويه من دلائل الحق وأنواع الاهتداء، وثمرة ذلك: الاعتبار بزواجره، والتذكر بمواعظه، والالتزام بمنهجه وأحكامه.

قال ابن تيمية: (فالرسل تبين للناس ما أنزل إليهم من ربهم، وعليهم أن يبلغوا الناس البلاغ المبين، والمطلوب من الناس أن يعقلوا ما بلغه الرسل، والعقل يتضمن العلم والعمل، فمن عرف الخير والشر، فلم يتبع الخير ويحذر الشر، لم يكن عاقلا، ولهذا لا يعد عاقلا إلا من فعل ما ينفعه، واجتنب ما يضره).(١)

• ويقول الله جل وعلا: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾. [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠].

والتيسير بمعنى التقريب والتسهيل.(٢)

(١) مجموع الفتاوى ١٥/١٠٨.

(٢) انظر: تفسير غريب القرآن ص ٤٣٢، معاني القرآن للزجاج ٥/٨٨.

وللمفسرين في المراد بتيسير القرآن للذكر قولان:

القول الأول: تسهيل القرآن للتذكر والاتعاظ.

وهو اختيار ابن جرير، قال: (يقول تعالى ذكره: ولقد سهلنا القرآن: بيناه وفصلناه وهوناه (للذكر): لمن أراد أن يتذكر ويعتبر ويتعظ).[١]

وبه قال جمع من المفسرين.[٢]

والمدكر[٣] - على هذا القول - بمعنى المتعظ المعتبر.

يقول ابن جرير: (هل من معتبر متعظ يتذكر، فيعتبر بما فيه من العبر والذكر).[٤]

ثم روى ابن جرير، وكذلك البخاري. تعليقا. وغيره، عن مطر الوراق في الآية ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ قال: (هل من طالب علم فيعان عليه).[٥]

---

(١) تفسير الطبري ٢٧/٩٦.
(٢) انظر: تفسير البغوي ٤/٢٦١، تفسير الزمخشري ٤/٤٣٦، البحر المحيط ٨/١٧٨، تفسير النسفي ٣/٤٤٥، تفسير أبي السعود ٨/١٧٠، روح المعاني ٢٧/٨٤، تفسير القاسمي ١٥/٢٦٧.
(٣) أصل (مدكر) في لغة العرب: مذتكر، على وزن مفتعل، من: ذكر، (أبدلوا من التاء دالا لتناسب الذال في النطق، ثم أدغموا الذال في الدال). انظر: تفسير الطبري ٢٧/٩٥. ٩٦، تفسير غريب القرآن ص ٤٣٢، تفسير ابن عطية ١٤/١٥٢.
(٤) تفسير الطبري ٢٧/٩٦.
(٥) صحيح البخاري: كتاب التوحيد ٦/٢٧٤٤، تفسير الطبري ٢٧/٩٦، تفسير ابن أبي حاتم ١٠/٣٣٢٠، الدر المنثور ٧/٦٧٦.

وعن قتادة قال: (فهل من طالب خير يعان عليه).[١]

قال ابن جرير: (وذلك قريب المعنى مما قلناه).[٢]

القول الثاني: تسهيل القرآن للقراءة والحفظ.

عن مجاهد في الآية ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ قال: (هونا قراءته).[٣]

قال ابن حجر: (قيل: المراد بالذكر: الاذكار والاتعاظ، وقيل: الحفظ، وهو مقتضى قول مجاهد).[٤]

وعزاه بعض المفسرين إلى السدي: (يسرنا تلاوته على الألسن)[٥]، وسعيد بن جبير: (يسرناه للحفظ والقراءة)[٦]، واختاره عدد من أهل التفسير.[٧]

---

(١) تفسير الطبري ٢٧/٩٦، الدر المنثور ٧/٦٧٦.
(٢) تفسير الطبري ٢٧/٩٦.
(٣) تفسير مجاهد ٢/٦٣٦، صحيح البخاري: كتاب التوحيد ٦/٢٧٤٤، تفسير الطبري ٢٧/٩٦، الدر المنثور ٧/٦٧٦.
(٤) فتح الباري ١٣/٥٢١.
(٥) تفسير ابن كثير ٤/٣٦٤.
(٦) تفسير البغوي ٤/٢٦١، ومما نقل عنه أيضا قوله: (ليس من كتب الله كتاب يقرأ كله ظاهرا. أي غيبا عن ظهر قلب. إلا القرآن). زاد المسير ٧/٢٤٦.
(٧) انظر: تفسير السمرقندي ٣/٣٥٢، تفسير الواحدي ٢/١٠٤٧، تفسير السمعاني ٥/٣١٢، تفسير ابن عطية ١٤/١٥٣، زاد المسير ٧/٢٤٦، التسهيل ٤/٨١، فتح القدير ٥/١٢٣.

قال ابن قتيبة، والسجستاني: (أي: سهلناه للتلاوة).[١]

وقال القرطبي: (أي: سهلناه للحفظ، وأعنا عليه من أراد حفظه).[٢]

يقول ابن جزي: (وهذا معلوم بالمشاهدة، فإنه يحفظه الأطفال الأصاغر وغيرهم حفظا بالغا، بخلاف غيره من الكتب).[٣]

والمذكر - على هذا القول - بمعنى: الذاكر القارئ لآيات القرآن.

قال القرطبي: هل من (قارئ يقرؤه)، (هل من طالب لحفظه فيعان عليه).[٤]

والمقصود (الحث على قراءته وتعلمه).[٥]

يقول ابن عطية: (قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ استدعاء وحض على حفظه وذكره، لتكون زواجره وعلومه وهداياته حاضرة في النفس) ثم قال: (الآية تعديد نعمة، في أن الله تبارك وتعالى يسر الهدى، فلله در من قبل واهتدى).[٦]

- وقد اتجه بعض علماء التفسير إلى الجمع بين المعاني في مراد التيسير للذكر في الآية الكريمة.

---

(١) تفسير غريب القرآن ص ٤٣٢، غريب القرآن ص ٥٢٥.

(٢) تفسير القرطبي ٨٧/١٧.

(٣) التسهيل ٨١/٤.

(٤) تفسير القرطبي ١٧ / ٨٨، ٨٧، ويرى بعض المفسرين أن المدكر .على هذا القول .هو أيضا بمعنى المعتبر المتعظ. انظر: تفسير البيضاوي ٤٤٧/٢، فتح القدير ١٢٣/٥.

(٥) زاد المسير ٢٤٦/٧، وانظر: فتح القدير ١٢٣/٥.

(٦) تفسير ابن عطية ١٥٣/١٤ (مختصرا).

قال ابن كثير: (﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾: أي: سهلنا لفظه، ويسرنا معناه لمن أراده ليتذكر الناس، كما قال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، وقوله: ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي: فهل من متذكر بهذا القرآن، الذي قد يسر الله حفظه ومعناه).[١]

وقال جلال الدين المحلي: (سهلناه للحفظ، وهيأناه للتذكر، فهل من مدكر: متعظ به، وحافظ له، والاستفهام بمعنى الأمر، أي: احفظوه، واتعظوا به).[٢]

وقال السعدي: (أي: ولقد يسرنا وسهلنا هذا القرآن الكريم: ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم، لأنه أحسن الكلام لفظا، وأصدقه معنى، وأبينه تفسيرا، فكل من أقبل عليه، يسر الله عليه مطلوبه غاية التيسير وسهله عليه).[٣]

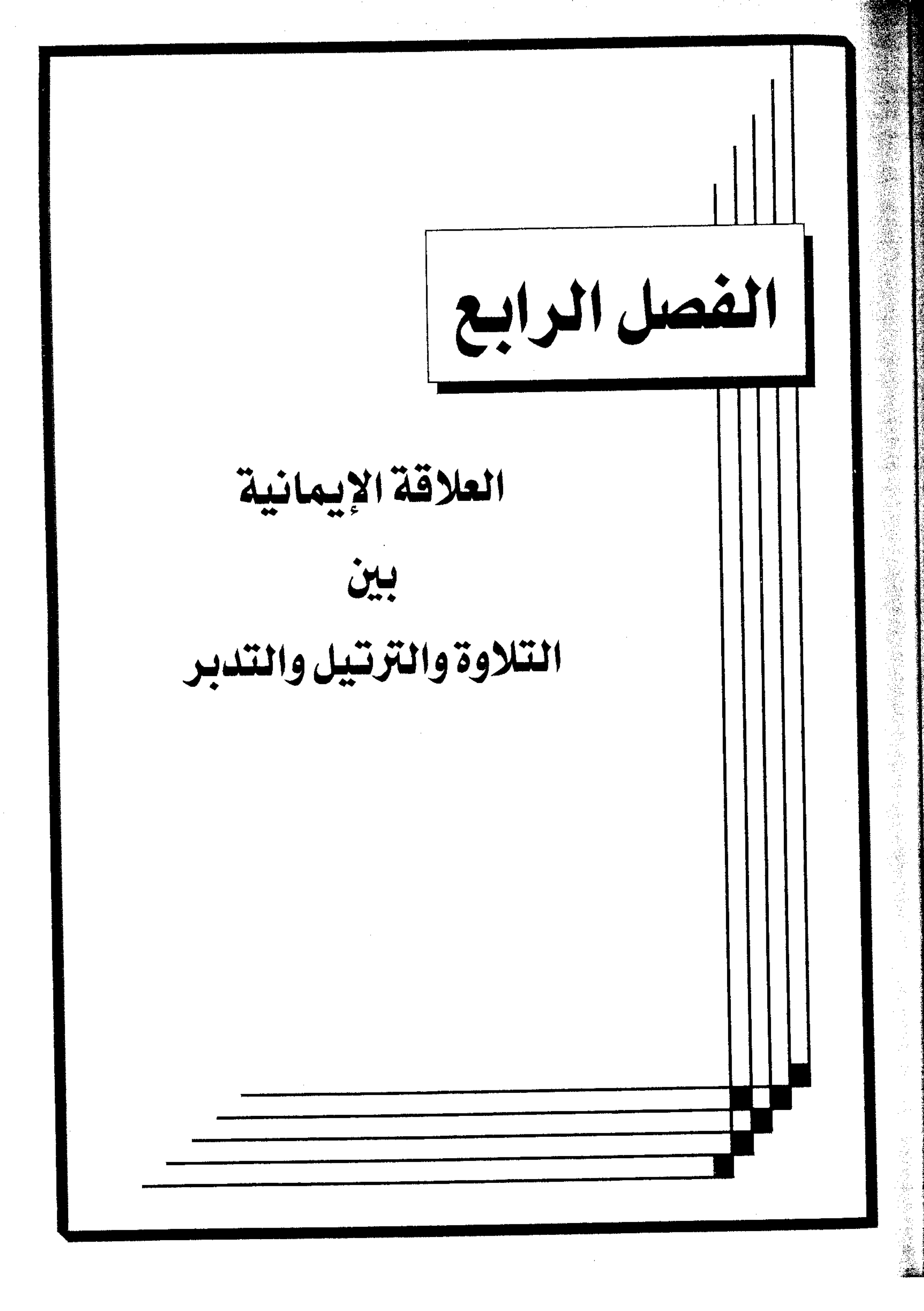
وهذا الجمع في تفسير الآية أولى وأقرب، والعلم عند الله تعالى.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٦٤/٤ (مختصرا)، وانظر: نظم الدرر ٣٥٢/٧، في ظلال القرآن ٣٤٣١/٦.

(٢) تفسير الجلالين ص ٧٠٦.

(٣) تفسير السعدي ١٣٩/٥.



الفصل الرابع

العلاقة الإيمانية
بين
التلاوة والترتيل والتدبر

من الواضح أن العلاقة بين هذه الألفاظ القرآنية علاقة وثيقة، إذ تلتقي مفاهيمها ضمن دائرة الاتصال بكتاب الله جل وعلا، في تسلسل يستهدف تحقيق مقاصد الكتاب العزيز.

ذلك أن المسلم مطالب بتلاوة القرآن الكريم بمعنى قراءته، على صفة الترتيل، مصحوبا بالتدبر، لتأتي الثمرة الكبرى: تلاوة القرآن بمعنى العمل به واتباع مراده ومدلوله.

ولذا كان هذا الفصل مشتملا على المباحث التالية:

المبحث الأول: تلاوة اللفظ القرآني عبادة.

المبحث الثاني: الترتيل وصف للتلاوة.

المبحث الثالث: التدبر مطلوب ومقصد.

المبحث الرابع: تلاوة المعنى هي الغاية.

المبحث الأول

تلاوة اللفظ القرآني عبادة

دعانا الإسلام إلى قراءة القرآن، وحثنا على الاعتناء بذلك، وقد مر في الفصل الأول جملة من الآيات في هذا المسار.

وفي السنة الشريفة من كلام رسولنا ﷺ ترغيب وتشويق، ومن ذلك:

• الحسنات.. وكثرتها.. ومضاعفتها.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف).[1]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (لا حسد إلا في اثنتين[2]: رجل علمه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فسمعه جار له، فقال: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل. ورجل آتاه الله مالا، فهو يهلكه في الحق[3]، فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ما أوتي

(١) رواه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ٥/١٧٥. ١٧٦، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والبيهقي في شعب الإيمان ٤/١٦١ . ١٦٢، وصححه الألباني: مشكاة المصابيح ١/٦٥٨، سلسلة الأحاديث الصحيحة ص ٥٤٢.

(٢) قال النووي في التبيان ص ١٨٨: (الحسد: تمني زوال النعمة عن غيره، والغبطة: تمني مثلها من غير زوالها، والحسد حرام، والغبطة في الخير محمودة محبوبة، والمراد بقوله صلى الله عليه وسلم: (لا حسد إلا في اثنتين) أي: لا غبطة محمودة يتأكد الاهتمام بها..).

(٣) أي: ينفقه في طاعة الله سبحانه. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٦/٩٨.

فلان، فعملت مثل ما يعمل).[1]

• المتاع الأعظم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاث خلفات[2] عظام سمان) قلنا: نعم، قال: (فثلاث آيات يقرأ بهن أحدكم في صلاته خير له من ثلاث خلفات عظام سمان).[3]

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصفة[4]، فقال: (أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو إلى العقيق[5] فيأتي منه بناقتين كوماوين[6] في غير إثم ولا قطع رحم[7]) فقلنا: يا رسول الله، نحب ذلك، قال: (أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد، فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله ﷻ خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب اغتباط صاحب القرآن ٤/١٩١٩، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن ١/٥٥٨.

(٢) الخلفات بفتح الخاء وكسر اللام: الحوامل من الإبل. انظر: شرح النووي ٦/٨٩.

(٣) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة ١/٥٥٢.

(٤) الصفة بضم الصاد وفتح الفاء المشددة: مكان مظلل في آخر مسجد رسول الله ﷺ، كان فقراء المهاجرين يأوون إليه. انظر: النهاية في غريب الحديث ٣/٣٧.

(٥) بطحان بضم الباء وإسكان الطاء: موضع بقرب المدينة، والعقيق واد من أوديتها. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٦/٨٩، النهاية ٣/٢٧٨.

(٦) (الكوماء من الإبل. بفتح الكاف. العظيمة السنام). شرح النووي ٦/٨٩.

(٧) (في) للسببية، والمعنى: لا يكون الحصول عليها بطريق محرم كالسرقة، ولا بما يوجب قطع الرحم. انظر: بلوغ الأماني ١٨/٨.

من أربع، ومن أعدادهن من الإبل).[١]

- الشفاعة يوم القيامة.

عن أبي أمامة الباهلي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه).[٢]

- الشرف والمنزلة الفضلى، والكرامة والمرتبة العلية.

عن عثمان ﷺ، عن النبي ﷺ قال: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)، وفي الرواية الأخرى (إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه).[٣]

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن لله أهلين من الناس)، قالوا: يا رسول الله، من هم؟، قال: (هم أهل القرآن، أهل الله وخاصته).[٤]

وعن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار).[٥]

---

(١) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة ١/٥٥٢. ٥٥٣.

(٢) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة ١/٥٥٣.

(٣) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ٤/١٩١٩.

(٤) رواه ابن ماجه في المقدمة، باب فضل من تعلم القرآن وعلمه ١/٧٨، قال البوصيري: (إسناده صحيح)، وأحمد في المسند: الفتح الرباني ١٨/٧، والدارمي في سننه: ٢/٧٠٩، والحاكم في المستدرك ١/٧٤٣ وقال: (وقد روي هذا الحديث من ثلاثة أوجه عن أنس هذا أمثلها)، ووافقه الذهبي، وحسن إسناده العراقي في المغني: الإحياء ١/٣٨٣، وصححه المنذري في الترغيب ٢/٣٥٤، وحسنه الأرنؤوط في تحقيق الآداب الشرعية ٢/٣١٤.

(٥) رواه البغوي في شرح السنة ٤/٤٣٦، وحسنه المحقق الأرنؤوط، ورواه أحمد بنحوه في المسند: الفتح الرباني ١٨/٥، والدارمي في سننه ٢/٧٠٧، والطبراني وأبو يعلى كما في مجمع الزوائد =

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط).[١]

= ٧/٣٢٩، وذكر المناوي في فيض القدير ٥/٤٢٣ أن الحديث يتقوى بتعدد طرقه، وصححه الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة ص ٥٣٤.

قال البغوي ٤/٤٣٧: (حكي عن أحمد بن حنبل قال: معناه: لو كان القرآن في إهاب، يعني: في جلد، في قلب رجل، يرجى لمن القرآن محفوظ في قلبه أن لا تمسه النار)، ونقل عن غيره: (معناه أن من حمل القرآن وقرأه لم تمسه النار يوم القيامة)، وانظر: فيض القدير ٥/٣٢٤.

وقال أبو عبيد: (وجه هذا عندنا أن يكون أراد بالإهاب قلب المؤمن وجوفه الذي قد وعى القرآن). فضائل القرآن ص ١٣.

وتعقب السخاوي هذا المعنى، قال: (وإنما معنى الحديث عندي .الذي لا أعتقد سواه .أن القرآن لو كتب في إهاب، وألقي ذلك الإهاب في نار جهنم لم يحترق، ولم تعد النار عليه احتراما للقرآن، إذ لم يجعل لها سلطان على ما هو وعاء له، وأعلم الله عز وجل نبيه ﷺ بأن النار لا تعدو على ما كتب فيه القرآن، ليكون ذلك بشرى لحملة القرآن، وبسطا لرجائهم). جمال القراء ١/٨٢.

(١) رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم ٥/١٧٤، وحسنه النووي في التبيان ص ٢٠، وفي رياض الصالحين: نزهة المتقين ١/٣٣٤، وذكر ابن مفلح أن إسناده جيد: الآداب الشرعية ٢/٣١٥، وحسنه المحقق الأرنؤوط، وانظر: فضائل القرآن لأبي عبيد ص ٢٣، الصحيح في فضائل القرآن ص ١٣٤. ١٣٥.

وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه: هو الجامع بين العلم به: قراءة وحفظا وفهما، والعمل به: تحكيما وطاعة وامتثالا، المتصف بالاعتدال والتوسط: بعيدا عن الغلو والتشدد، وعن التقصير والإهمال. انظر: عون المعبود ٨/٢١٩، ونقل القرطبي في التذكار ص ١٢٣ عن أبي عمر بن عبد البر قوله: (وحملة القرآن: هم العالمون بأحكامه وحلاله وحرامه، والعاملون به) ثم قال: (ما أحسن هذا، وهذا هو الكمال).

وعن عامر بن واثلة: أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر ﷺ بعسفان، وكان عمر ﷺ يستعمله على مكة، فقال: من استعملت على أهل الوادي، فقال: ابن أبزى، قال: ومن ابن أبزى؟، قال: مولى من موالينا، قال: فاستخلفت عليهم مولى، قال: إنه قارئ لكتاب الله ﷻ، وإنه عالم بالفرائض، قال عمر ﷺ: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين).[١]، وفي رواية أبي عبيد قال عمر ﷺ: وإني لأرجو أن يكون عبد الرحمن بن أبزى ممن رفعه الله بالقرآن.[٢]

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: كان النبي ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد، ثم يقول: (أيهم أكثر أخذا للقرآن)، فإذا أشير له إلى أحدهما قدمه في اللحد.[٣]

• اقتران الماهرين بالملائكة الأبرار.. وزيادة الأجر في حال المشقة.

عن عائشة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران).[٤]، وفي رواية البخاري (ومثل الذي يقرأ وهو يتعاهده وهو عليه

---

(١) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ٥٥٩/١.

(٢) فضائل القرآن ص ٢٥.

(٣) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهيد ٤٥٠/١، وانظر: فضائل القرآن لأبي عبيد ص ٢٣، قال ابن حجر: (وفيه فضيلة ظاهرة لقارئ القرآن). فتح الباري ٢٦٠/٦، وانظر ٢٥٥/١٥.

(٤) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب فضل الماهر بالقرآن ٥٤٩/١. ٥٥٠، قال القرطبي في تفسيره ٩/١: (التتعتع: التردد في الكلام عيا وصعوبة، وإنما كان له أجران: من حيث =

شديد فله أجران).[١]

• المثل الأطيب.

عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو).[٢]

• حصول الطمأنينة.. وتغشي الرحمة.. واحتفاء الملائكة.. وثناء الرب جل شأنه.

= التلاوة، ومن حيث المشقة، ودرجات الماهر فوق ذلك كله، لأنه قد كان القرآن متعتعا عليه، ثم ترقى عن ذلك إلى أن شبه بالملائكة. والله أعلم)، وانظر: التذكار ص٥٢، وقال النووي في شرح صحيح مسلم ٨٤/٦، ٨٥: (الماهر: الحاذق الكامل الحفظ، الذي لا يتوقف ولا يشق عليه القراءة بجودة حفظه وإتقانه)، (وأما الذي يتتعتع فيه: فهو الذي يتردد في تلاوته لضعف حفظه، فله أجران: أجر بالقراءة، وأجر بتتعتعه في تلاوته ومشقته، قال القاضي وغيره من العلماء: وليس معناه: الذي يتتعتع عليه له من الأجر أكثر من الماهر به، بل الماهر أفضل وأكثر أجرا، لأنه مع السفرة، وله أجور كثيرة، ولم يذكر هذه المنزلة لغيره، وكيف يلحق به من لم يعتن بكتاب الله تعالى وحفظه وإتقانه وكثرة تلاوته وروايته، كاعتنائه حتى مهر فيه، والله أعلم).

(١) صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب تفسير سورة عبس ١٨٨٢/٤. ١٨٨٣.

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب فضل القرآن ١٩١٧/٤، ومسلم. واللفظ له. في كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة حافظ القرآن ٥٤٩/١.

والأترجة بضم الهمزة والراء وإسكان التاء وتشديد الجيم: نوع من الثمار، يمتاز بجمال المنظر، ولين الملمس، وحسن الطعم، وتعدد المنافع، وطيب النكهة والرائحة. انظر: شرح السيوطي على سنن النسائي ١٢٥/٨.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (.. وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده).(١)

•• وبالإنصات إلى القرآن يرجو المؤمن رحمة الله جل وعلا: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾. [الأعراف: ٢٠٤].

قال القرطبي: (وإذا كان هذا الثواب لمستمع القرآن فكيف بتاليه).(٢)

•• ولذا كانت هذه التلاوة للكتاب العزيز، ومدارسة أحكامه ومعانيه، من أهم ما يغتنم به الصحابة ﷺ أوقاتهم، ويعمرون به مجالسهم.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: (أصحاب النبي ﷺ إذا جلسوا كان حديثهم، يعني: الفقه، إلا أن يقرأ رجل سورة، أو يأمر رجلا بقراءة سورة).(٣)

قال ابن تيمية: (وكان أصحاب محمد ﷺ إذا اجتمعوا، أمروا واحدا منهم أن يقرأ، والباقي يستمعون).(٤)

ومما أثر عن عمر ﷺ أنه كان يطلب من بعض الحفاظ .كأبي موسى الأشعري ﷺ وغيره.أن يقرأ في مجلسه، وهو وأصحابه يستمعون.(٥)

---

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ٢٠٧٣/٣.
(٢) التذكار ص ٧٩.
(٣) المستدرك ١٧٣/١ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وانظر: مجموع الفتاوى ٥٨/١١.
(٤) التحفة العراقية ص ٤٤١.
(٥) انظر: شرح السنة ٤٩٢/٤، التبيان ص ١٠٨، الاستقامة ٢٤٥/١، جامع العلوم والحكم ٣٠١/٢.

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن: أن أبا موسى ﷺ كان يأتي عمر ﷺ، فيقول له عمر ﷺ: (ذكرنا ربنا)، فيقرأ عنده.(١)

وعن عقبة بن عامر ﷺ- وكان معروفا بحسن صوته بالقرآن-: أن عمر ﷺ قال له: (يا عقبة، اعرض علي سورة)، قال: فعرض عليه: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم ﴾. [التوبة: ١].(٢)

---

(١) سنن الدارمي ٧٣٧/٢، وانظر: فضائل القرآن لأبي عبيد ص ٤٧، صفة الصفوة ٥٥٧/١، فضائل القرآن لابن كثير ص ١٥٥، سير أعلام النبلاء ٤٥٨/١٢.
(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد ص ٤٧، وانظر: سير أعلام النبلاء ٢٦٩٨/٢.

المبحث الثاني

الترتيل وصف للتلاوة

لقراءة الكتاب العزيز صفة خاصة، أمر الله جل وعلا بها رسوله ﷺ في قوله سبحانه: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾، وجعلها سمة لأهل القرآن، يرتقون بها مراتب الشرف ومنازل الكرامة، ينبئ بذلك حديث رسول الله ﷺ: (يقال لصاحب القرآن: اقرأ، وارتق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرأ بها).[١]

تلكم هي سمة الترتيل، قرأ بها رسولنا ﷺ سور القرآن وآياته، امتثالا لتوجيه ربه تبارك وتعالى، وتعليما لأصحابه ﷺ.

(١) رواه أبو داود في كتاب الوتر، باب استحباب الترتيل ١٥٣/٢، والترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ما له من الأجر ١٧٧/٥، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والنسائي في الفضائل ص ١١٤، وابن ماجه في كتاب الأدب، باب ثواب القرآن ١٢٤٢/٢، وأحمد في المسند: الفتح الرباني ٧/١٨، والبيهقي في شعب الإيمان ١٧٤/٤، ٢٩٤/٤. ٢٩٥، والحاكم في المستدرك ٧٣٩/١ وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة ص ٥٤٨.
وصاحب القرآن هو الملازم له تلاوة وعملا، لا القارئ المجرد عن الامتثال.
قال في عون المعبود ٢١٢/٣: (ويؤخذ من الحديث: أنه لا ينال هذا الثواب الأعظم إلا من حفظ القرآن، وأتقن أداءه وقراءته كما ينبغي له).
وقال الخطابي في معالم السنن ١٣٦/٢: (جاء في الأثر: أن عدد آي القرآن على قدر درج الجنة، يقال للقارئ: ارق في الدرج، على قدر ما كنت تقرأ من آي القرآن، فمن استوفى قراءة جميع القرآن، استولى على أقصى درج الجنة، ومن قرأ جزءا منها كان رقيه في الدرج على قدر ذلك، فيكون منتهى الثواب عند منتهى القراءة).

تذكر أم المؤمنين حفصة ﷺ من شأنه ﷺ، أنه (كان يقرأ بالسورة فيرتلها، حتى تكون أطول من أطول منها).[١]

وعن نافع، عن ابن أبي مليكة، عن بعض أزواج النبي ﷺ، قال نافع: أراها حفصة، أنها سئلت عن قراءة رسول الله ﷺ، فقالت: إنكم لا تستطيعونها، قال: فقيل لها: أخبرينا بها، قال: فقرأت قراءة ترسلت فيها..).[٢]

والمراد بالترسل في القراءة: التمهل والتبيين والتأني المنافي للعجلة.

ولما سئل أنس ﷺ: كيف كانت قراءة النبي ﷺ، قال: (كانت مدا)، ثم قرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، يمد ببسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم.[٣]

والمراد هنا المدود الطبيعية، التي لا تتحقق حروف المد بدونها.[٤]

ومقصود أنس ﷺ - والعلم عند الله تعالى - وصف القراءة النبوية بالوضوح والتحقيق، والترسل والتمييز، بعيدا عن السرعة المفرطة أو الاستعجال المخل، وتحرزا من تضييع الألفات أو تداخل الحروف.

ويدل لذلك أن أم المؤمنين أم سلمة ﷺ، حين سئلت عن قراءته ﷺ،

(١) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب جواز النافلة قائما وقاعدا ٥٠٧/١.
(٢) رواه أحمد في المسند: الفتح الرباني ٢٣٧/٣، قال البنا في بلوغ الأماني: (وسنده جيد).
(٣) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن ١٩٢٥/٤.
(٤) انظر: فتح الباري ١٠٩/١٩، عون المعبود ٢١٣/٣، بلوغ الأماني ٢٣٦/٣.

نعتت قراءة مفسرة حرفا حرفا.[١]

والمعنى: قراءة مرتلة.

ونعتها هنا لقراءة النبي ﷺ يحتمل أمرين[٢]، أحدهما: أن تقول: كانت قراءته كذا وكذا، وثانيهما: أن تقرأ مرتّلة كقراءته ﷺ.

قال السندي: (أي: وصفت وبينت بالقول، أو بالفعل: بأن قرأت كقراءته ﷺ).[٣]

وفي كلا الحالين، فإن مرادها تقرير أن تلاوة رسولنا ﷺ تتصف بالتأني والتجويد، وتتسم بالبيان والتمهل وحسن الترتيل.

ولما كانت المشافهة هي الوسيلة المعينة على تحقيق هذه السمة الجليلة، فقد أوصى رسول الله ﷺ أصحابه ﷺ، بتعلم القرآن وأخذه عن ذوي المهارة والإتقان.

يقول ﷺ: (استقرئوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل).[٤]

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الوتر، باب استحباب الترتيل في القراءة ٢/١٥٤، والترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء كيف كانت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ٥/١٨٢، وقال: (هذا حديث حسن صحيح غريب)، ورواه أيضا في الشمائل: باب ما جاء في قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ص ١٢١، والنسائي في كتاب الافتتاح، باب تزيين القرآن بالصوت ٢/١٨١، والبغوي في شرح السنة ٤/٤٨١ قال المحقق الأرنؤوط: (حديث حسن).

(٢) انظر: عون المعبود ٣/٢١٤، تحفة الأحوذي ٧/٣٤١.

(٣) حاشية السندي على النسائي ٢/١٨١.

(٤) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب مناقب عبد الله بن مسعود ﷺ ٣/١٣٧٢، ومسلم بنحوه في كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه ﷺ ٢/١٩١٤.

=

ويقول ﷺ: (من أحب أن يقرأ القرآن غضًّا كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد)[١]، يعني عبد الله بن مسعود ﷺ.

واستفاد بعض القراء من هذا الحديث الشريف، توجيها بالاهتمام بتحقيق وصف الترتيل في قراءة القرآن، فقد قال الحسين الجعفي: (إن معنى ذلك أن ابن مسعود كان يرتل القرآن، فحض النبي ﷺ الناس على ترتيل القرآن بهذا القول).[٢]

ولقد اعتنى الصحابة ﷺ بالترتيل في القراءة، وأوصوا به تلاميذهم.

عن ابن عباس ﷺ قال: (لأن أقرأ سورة أرتلها، أحب إلي من أن أقرأ القرآن كله).[٣]

وعن أبي وائل قال: غدونا على عبد الله بن مسعود ﷺ، فقال رجل:

=

قال ابن حجر في الفتح ١٤/٢٥١: (وتخصيص هؤلاء الأربعة بأخذ القرآن عنهم: إما لأنهم كانوا أكثر ضبطا له وأتقن لأدائه، أو لأنهم تفرغوا لأخذه منه صلى الله عليه وسلم مشافهة، وتصدوا لأدائه من بعده، فلذلك ندب إلى الأخذ عنهم، لا أنه لم يجمعه غيرهم).

(١) رواه ابن ماجه في المقدمة ١/٤٩، وأحمد في المسند: ١/٤٤٥، والحاكم في المستدرك ٣/٣٥٩ . ٣٦٠ وصححه، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة ص٥٣٧، وصححه أيضا محمد قلعه جي في تخريج أحاديث صفة الصفوة ١/٣٩٩.
قال ابن الأثير في النهاية ٣/٣٧١: (الغض: الطري الذي لم يتغير).

(٢) الإبانة ص ١١٠.

(٣) التبيان ص ٨٥.

قرأت المفصَّل البارحة، فقال: (هذًّا كهذِّ الشعر).[١]

وذلك باعتبار أن تحقيق صفة الترتيل في القراءة، معين على حسن التدبر لكلام الله سبحانه.

قال النووي: (فيه النهي عن الهذ، والحث على الترتيل والتدبر).[٢]

وقال ابن كثير: (وفيه دليل على استحباب ترتيل القراءة والترسل فيها، من غير هذرمة ولا سرعة مفرطة، بل بتأمل وتفكر).[٣]

ومما يشير إلى اهتمام ابن مسعود ﷺ، واعتنائه بالتزام هذه الكيفية في تلاوة الكتاب العظيم، اقتداء برسول الله ﷺ، ما رواه مسعود بن يزيد الكندي قال: كان ابن مسعود ﷺ يقرئ رجلا، فقرأ الرجل: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) مرسلة، فقال ابن مسعود: (ما هكذا أقرأنيها النبي ﷺ)، فقال: وكيف أقرأكها؟ قال: (أقرأنيها (إنما الصدقات للفقراء والمساكين)) فمدها.[٤]

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب الترتيل في القراءة ٤/١٩٢٤، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب ترتيل القراءة ١/٥٦٤.
والمفصل: (من ق إلى آخر القرآن على الصحيح، وسمي مفصلا لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة). شرح السيوطي على سنن النسائي ٢/١٧٥، والهذ: الإفراط في السرعة، والمعنى (تسرع إسراعا في قراءته، كما تسرع في إنشاد الشعر). حاشية السندي على النسائي ٢/١٧٥، وانظر: التبيان ص ٨٥.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٦/١٠٥.

(٣) فضائل القرآن ص ١٥٠. ١٥١.

(٤) رواه ابن الجزري في النشر ١/٢٤٧، وقال: (رجال إسناده ثقات، رواه الطبراني في معجمه الكبير)، وصححه الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة ص ٥٠٥. ٥٠٦.

وعن علقمة بن قيس، أنه قرأ على ابن مسعود ﷺ، فقال له: (رتل، فداك أبي، فإنه زينة القرآن).[١]

وكان الباعث على هذا التنبيه من الصحابي الجليل ﷺ، أن تلميذه علقمة قرأ بنوع استعجال.

روى أبو عبيد في الفضائل عن إبراهيم قال: قرأ علقمة على عبد الله، فكأنه عجل، فقال عبد الله: (فداك أبي وأمي، رتل، فإنه زين القرآن) قال: وكان علقمة حسن الصوت بالقرآن.[٢]

وبناء على هذا التأسيس الشرعي، أكد أهل العلم على أهمية الاعتناء بتحقيق صفة الترتيل، في تلاوة الكتاب العزيز.

يقول النووي في آداب حامل القرآن: (وينبغي أن يرتل قراءته، وقد اتفق العلماء على استحباب الترتيل).[٣]

ويشير الغزالي إلى أهمية الترتيل باعتباره وسيلة إلى تفهم المضمون: (الترتيل هو المستحب في هيئة القرآن، لأنا سنبين أن المقصود من القراءة التفكر، والترتيل معين عليه).[٤]

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٥/٥١٦، شعب الإيمان ٤/٢٩٦، فتح الباري ١٩/١٠٩، الدر المنثور ٨/٣١٤.

(٢) فضائل القرآن ص ٤٥، وانظر: التهذيب الموضوعي لحلية الأولياء ص ٦٢٣، فضائل القرآن لابن كثير ص ١٥١.

(٣) التبيان ص ٨٣، وانظر: الإتقان ٢/٦٧٥.

(٤) إحياء علوم الدين ١/٣٨٨، وانظر: تفسير ابن عطية ١٢/٤٥٣.

ويؤكد الزركشي على ذات المعنى، وهو يتحدث عن الوسائل المعينة على التزام منهج القرآن، فيقول: (وأكبر معين على ذلك حسن ترتيله وتلاوته)، ثم يقول: (فحق على كل امرئ مسلم قرأ القرآن أن يرتله).[١]

ولا ريب أن تحقيق صفة الترتيل يقتضي تصحيح القراءة، ويتضمن العناية بسلامة النطق للحروف والألفاظ، والدقة في ضبط الحركات، والحذر من الخطأ واللحن في تلاوة الآيات.

قال ابن عطية: (إعراب القرآن أصل في الشريعة لأن به تقوَّم معانيه التي هي الشرع).[٢]

والمقصود أن التلاوة الصحيحة للألفاظ القرآنية، وضبط حركاتها الإعرابية، وسيلة إلى إدراك المراد بالآية، والوقوف على معناها ومدلولاتها.

وفي هذا المعنى نقل القرطبي عن أبي بكر الأنباري قوله: (جاء عن النبي ﷺ وعن أصحابه وتابعيهم رضوان الله عليهم، من تفضيل إعراب القرآن، والحض على تعليمه، وذم اللحن وكراهيته، ما وجب به على قراء

(١) البرهان ١/٤٤٩.

(٢) تفسير ابن عطية ١/٢٥، وانظر: التذكار ص ٨٥.

وأورد البيهقي في شعب الإيمان ٤/٣٩١ جملة من الآثار في هذا المعنى، ثم نقل عن الحليمي قوله:
(ومعنى إعراب القرآن شيئان:

أحدهما: أن يحافظ على الحركات التي بها يتميز لسان العرب عن لسان العجم، لأن أكثر كلام العجم مبني على السكون وصلا وقطعا، ولا يتميز الفاعل من المفعول والماضي من المستقبل، باختلاف حركات المقاطع.

والآخر: أن يحافظ على أعيان الحركات، ولا يبدل شيء منه بغيره، لأن ذلك ربما أوقع في اللحن أو غير المعنى).

القرآن أن يأخذوا أنفسهم بالاجتهاد في تعلمه)، ثم ذكر جملة من الآثار في هذا الباب.[١]

ومما أثر[٢] عن زيد بن ثابت ﷺ وغيره: (قراءة القرآن سنة)، (القراءة سنة متبعة).

وعن عروة بن الزبير: (إن قراءة القرآن سنة من السنن، فاقرأوه كما أقرئتموه)، (إنما قراءة القرآن سنة من السنن فاقرأوه كما علمتموه).

وعن محمد بن المنكدر: (قراءة القرآن سنة يأخذها الآخر عن الأول)، وهو مروي أيضا عن عمر بن الخطاب ﷺ وعمر بن عبد العزيز.

(١) انظر: تفسير القرطبي ١/١٩ . ٢٠. و(اللحن: الخطأ ومخالفة الصواب، وبه سمي الذي يأتي بالقراءة على ضد الإعراب لحانا، وسمي فعله اللحن، لأنه كالمائل في كلامه عن جهة الصواب). التمهيد ص ٧٦

واللحن قسمان: جلي وخفي، فالجلي هو الخطأ الظاهر: بتبديل حرف بآخر أو حذفه، أو بتغيير حركة بأخرى، أما الخفي فهو المتعلق بتطبيق قواعد التجويد، كإظهار المدغم أو قصر الممدود ونحو ذلك، وسمي خفيا لأنه لا يدركه إلا القراء العارفون بهذا العلم.

قال السيوطي: (عد العلماء القراءة بغير تجويد لحنا، فقسموا اللحن إلى جلي وخفي، فاللحن خلل يطرأ على الألفاظ فيخل، إلا أن الجلي يخل إخلالا ظاهرا، يشترك في معرفته علماء القراءة وغيرهم، وهو الخطأ في الإعراب، والخفي يخل إخلالا يختص بمعرفته علماء القراءة وأئمة الأداء، الذين تلقوه من أفواه العلماء، وضبطوه من ألفاظ أهل الأداء). الإتقان ٢/٦٤٠، وانظر: جمال القراء ٢/٥٢٩، إبراز المعاني ٢/٧٤٤، التمهيد ص ٧٦ . ٧٨، شرح المقدمة الجزرية ص ٤٩.

(٢) انظر: فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٣٤، المستدرك ٢/٢٤٤، السبعة ص ٤٩ . ٥٢، إبراز المعاني ١/٥، النشر ١/٢١.

وفي هذه الآثار دعوة إلى تعلم التلاوة الصحيحة للكتاب العزيز.

قال أبو عبيد: (وإنما نرى القراء عرضوا القراءة على أهل المعرفة بها، ثم تمسكوا بما علموا، مخافة أن يزيغوا عما بين اللوحين بزيادة أو نقصان).(١)

يقول ابن الجزري: (ولا شك أن الأمة كما هم متعبدون بفهم معاني القرآن وإقامة حدوده، متعبدون بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه، على الصفة المتلقاة من أئمة القراءة المتصلة بالحضرة النبوية الأفصحية العربية، التي لا تجوز مخالفتها ولا العدول عنها إلى غيرها).(٢)

ومن كلامه في الحث على تعلم القراءة المرتلة للقرآن، وتلقيها من ذوي التجويد والإتقان، قوله: (ولا أعلم لبلوغ النهاية في التجويد مثل رياضة الألسن، والتكرار على اللفظ المتلقى من فم المحسن).(٣)

وقوله أيضا: (والناس في ذلك بين محسن مأجور، ومسيء آثم، أو معذور.

فمن قدر على تصحيح كلام الله تعالى باللفظ الصحيح، وعدل إلى اللفظ الفاسد استغناء بنفسه، واستبدادا برأيه، واتكالا على ما ألف من حفظه، واستكبارا عن الرجوع إلى عالم يوقفه على صحيح لفظه، فإنه مقصر بلا شك، وآثم بلا ريب، وغاش بلا مرية.

أما من كان لا يطاوعه لسانه، ولا يجد من يهديه إلى الصواب بيانه، فإن

---

(١) فضائل القرآن ص ١٣٣، وانظر: الإتقان ٢/٤٩٤ . ٤٩٥.
(٢) النشر ١/١٤، وانظر: الإتقان ٢/٦٤٠، مناهل العرفان ١/٣٩٦ . ٣٩٧.
(٣) النشر ١/١٦٩ .وانظر: شرح المقدمة الجزرية ص ٥٣.

الله لا يكلف نفسا إلا وسعها).(١)

ولذا كان المجتمع المسلم بحاجة إلى من يقوم بهذه المهمة في تعليم القرآن.

يقول ابن حزم: (وفرض على جميع المسلمين، أن يكون في كل قرية أو مدينة أو حصن، من يحفظ القرآن كله ويعلمه الناس، ويقرئهم إياه، لأمر رسول الله ﷺ بقراءته).(٢)

• ومما يتعلق بصفة الترتيل في قراءة القرآن العظيم: **تزيين الصوت وتحسينه.**

وهو أمر مستحب مندوب إليه شرعا.

عن البراء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (زينوا القرآن بأصواتكم).(٣)

فهذا الحديث الشريف يدعو قارئ القرآن، إلى الاهتمام بتحسين صوته وتطييبه، ومراعاة ذلك أثناء التلاوة.

---

(١) النشر ١/١٦٧.
(٢) الإحكام ٥/٩٠١، وانظر: البرهان ١/٦٥٤.
(٣) رواه أبو داود في كتاب الوتر، باب استحباب الترتيل في القراءة ٢/١٥٥، والنسائي في كتاب الافتتاح، باب تزيين القرآن بالصوت ٢/١٧٩ . ١٨٠، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة، باب في حسن الصوت بالقرآن ١/٤٢٦، وأحمد في المسند: الفتح الرباني ١٨/١٥، والدارمي في سننه ٢/٧٣٨، والبيهقي في شعب الإيمان ٤/٢٧٩، والحاكم: انظر: المستدرك ١/٧٦١ . ٧٦٩، وجود إسناده ابن كثير في فضائل القرآن ص ١١١، وصححه الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة ص٥٢٢.

ويشهد لهذا المعنى ما تضمنته رواية الحاكم: (.. فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا).[١]

وفي رواية الدارمي وغيره: (حسنوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا).[٢]

وعن علقمة بن قيس قال: كنت رجلا قد أعطاني الله حسن الصوت بالقرآن، وكان ابن مسعود يرسل إلي فأقرأ عليه القرآن، فكنت إذا فرغت من قراءتي قال: زدنا من هذا، فداك أبي وأمي، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (حسن الصوت زينة القرآن).[٣]

قال ابن كثير: (والمراد من تحسين الصوت بالقرآن: تطريبه وتحزينه والتخشع به)، واستدل بحديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ ذات يوم: (يا أبا موسى، لو رأيتني وأنا أستمع قراءتك البارحة)، قلت: أما والله لو علمت أنك تسمع قراءتي لحبرتها لك تحبيرا، ثم قال ابن كثير: (والغرض أن أبا موسى قال: لو أعلم أنك تسمعه لحبرته لك تحبيرا، فدل على جواز تعاطي ذلك وتكلفه، وقد كان أبو موسى قد أعطي صوتا حسنا، مع خشية تامة ورقة أهل اليمن، فدل على أن هذا من

(١) المستدرك ١/٧٦٨، وانظر: الجامع الصغير: فيض القدير ٤/٦٨.
(٢) سنن الدارمي ٢/٧٣٨، شعب الإيمان ٤/٢٧٩، وصحح إسناده محقق الإتقان ٢/٦٨٧.
(٣) رواه الطبراني والبزار كما في مجمع الزوائد ٧/٣٥٤، قال الهيثمي: (وفيه: سعيد بن أبي زربى، وهو ضعيف)، والبيهقي في شعب الإيمان ٤/٢٨٨، وصححه الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة ص ٥٢١.

الأمور الشرعية).[١]

وعن أبي هريرة ﷺ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت، يتغنى بالقرآن، يجهر به).[٢]

والمقصود بالتغني: تزيين الصوت وترتيل القراءة.

قال المنذري: (أي: ما استمع لشيء من كلام الناس، كما استمع الله إلى من يتغنى بالقرآن، أي: يحسن به صوته).[٣]

(١) فضائل القرآن ص ١١٢ (مختصرا).
(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب (من لم يتغن بالقرآن) ٤/١٩١٨، ومسلم. واللفظ له. في كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن ١/٥٤٥.
و(أذن) بكسر الذال، أي: استمع، من الأذن: بفتح الهمزة والذال، وهو الاستماع، والمراد بالقرآن هنا ما يقرأ من كلام الله المنزل. انظر: النهاية في غريب الحديث ١/٣٣، شرح السنة ٤/٤٨٤ . ٤٨٥، معالم السنن ٢/١٣٩، فتح الباري ١٩/٨٢.
قال المنذري: (وروى ابن جرير الطبري هذا الحديث بسند صحيح، وقال فيه: ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الترنم بالقرآن). الترغيب والترهيب ٢/٣٦٣، والترنم بمعنى التغني وتحسين الصوت بالتلاوة. انظر: النهاية ٢/٢٧١.
(٣) الترغيب والترهيب ٢/٢٦٢ . ٢٦٣ قال: (وذهب سفيان بن عيينة وغيره إلى أنه من الاستغناء، وهو مردود)، واعتبره ابن كثير (خلاف الظاهر). فضائل القرآن ص ١٠٦، وعرض ابن حجر الخلاف في تفسير التغني ثم قال: (وفي الجملة ما فسر به ابن عيينة ليس بمدفوع، وإن كانت ظواهر الأخبار ترجح أن المراد تحسين الصوت..). فتح الباري ١٩/٨٥، وانظر: شرح السنة ٤/٤٨٥ . ٤٨٧، شرح النووي على صحيح مسلم ٦/٧٨ . ٧٩، زاد المعاد ١/٤٨٦ . ٤٨٩، عون المعبود ٣/٢١٦، بلوغ الأماني ١٨/١٤.

ورجحه البيهقي وابن كثير وغيرهما.[١]

يقول ابن كثير: (ومعناه: أن الله تعالى ما استمع لشيء كاستماعه لقراءة نبي يجهر بقراءته ويحسنها، وذلك أنه يجتمع في قراءة الأنبياء طيب الصوت لكمال خلقهم، وتمام الخشية، وذلك هو الغاية في ذلك، وهو ﷻ يسمع أصوات العباد كلهم برهم وفاجرهم، ولكن استماعه لقراءة عباده المؤمنين أعظم، ثم استماعه لقراءة أنبيائه أبلغ كما دل عليه هذا الحديث العظيم).[٢]

وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لله أشد أذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن، من صاحب القينة إلى قينته).[٣]

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (تعلموا كتاب الله وتعاهدوه وتغنوا به، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفلتا من المخاض في العقل).[٤]

---

(١) انظر: شعب الإيمان ٤/٢٨٤، فضائل القرآن لابن كثير ص ١٠٦. ١٠٧، الاستقامة ١/٢٤٤، فيض القدير ٥/٤١٦، حاشية السندي على النسائي ٢/١٨٠.

(٢)فضائل القرآن ص ١٠٥ . ١٠٦ (مختصرا)، وقال ص ١١٤: (أحسن القراءات ما كان عن خشوع من القلب).

(٣) رواه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة، باب في حسن الصوت بالقرآن ١/٤٢٥، قال البوصيري في الزوائد: (إسناده حسن)، ورواه أحمد أيضا . واللفظ له . في المسند: الفتح الرباني ١٨/١٥، والبيهقي في شعب الإيمان ٤/٢٨٣ . ٢٨٤، والحاكم في المستدرك ١/٧٦٠ . ٧٦١ وصححه، وتعقبه الذهبي، وجود إسناده ابن كثير في الفضائل ص ١٠٦، وانظر: فضائل القرآن لأبي عبيد ص ٤٧، الجامع الصغير: فيض القدير ٥/٢٥٣.

والأذن بفتح الهمزة والذال: الاستماع، والقينة بفتح القاف وسكون الياء: الجارية المغنية. انظر: الترغيب والترهيب ٢/٣٦٣، التبيان ص ١٩٦، النهاية ٤/١٣٥.

(٤) رواه أحمد في المسند: الفتح الرباني ١٨/٧، والدارمي في سننه ٢/٧١٤، والنسائي في الفضائل =

وتعلم القرآن يشمل تصحيح قراءته وحفظ آياته وتفهم معانيه، وتعاهده يعني الحرص على مراجعته واستذكاره، والتغني به يعني الاهتمام بتحسين الصوت وتزيينه أثناء تلاوته والنطق بألفاظه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ليس منا من لم يتغن بالقرآن).[١]

وهو مروي أيضا من حديث سعد وأبي لبابة وغيرهما رضي الله عنهم.[٢]

قال القرطبي: (أي: ليس منا من لم يحسن صوته بالقرآن).[٣]

= ص ١١١، والبيهقي في شعب الإيمان ٤/١٤٢ قال المحقق: (رجاله ثقات)، والطبراني كما في مجمع الزوائد ٧/٣٤٩ قال الهيثمي: (ورجال أحمد رجال الصحيح)، وذكر القرطبي أنه صحيح الإسناد: التذكار ص ١٠٤، وصححه الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة ص ٥٢٠.

قال المناوي: (لهو أشد تفلتا) أي: ذهابا (من المخاض) أي: النوق الحوامل (في العقل) جمع عقال، وعقلت البعير حبسته، وخص ضرب المثل بها لأنه إذا انفلتت لا تكاد تلحق). والعقال بكسر العين: الحبل الذي يعقل به البعير. انظر: النهاية ٣/٢٨٠، ٤/٣٠٦، فيض القدير ٣/٢٥٥.

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ٦/٢٧٣٧.

(٢) انظر: سنن أبي داود ٢/١٥٦. ١٥٧، الفتح الرباني ١٨/١٤، سنن الدارمي ٢/٧٣٦، المستدرك ١/٧٥٨. ٧٦٠، مجمع الزوائد ٧/٣٥٢. ٣٥٣، الجامع الصغير: فيض القدير ٥/٣٨٧. ٣٨٨.

(٣) تفسير القرطبي ١/١٢، وانظر: التذكار ص ١٠٠، معالم السنن ٢/١٣٨، إحياء علوم الدين ١/٣٩١، فيض القدير ٥/٣٨٧، بلوغ الأماني ١٨/١٤.

قال ابن القيم في معنى (ليس منا): (فيه وجهان: أحدهما: أنه إخبار بالواقع الذي كلنا نفعله، والثاني: أنه نفي لهدي من لم يفعله عن هديه وطريقته ﷺ). زاد المعاد ١/٤٩٣.

وقال النووي: (قال جمهور العلماء: معنى لم يتغن: لم يحسن صوته به).[١]

ولذا لما قيل لابن أبي مليكة - أحد رواة الحديث -: يا أبا محمد، أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت، قال: (يحسنه ما استطاع).[٢]

قال ابن كثير: (فقد فهم من هذا أن السلف ﷺ إنما فهموا من التغني بالقرآن، إنما هو تحسين الصوت به وتحزينه، كما قاله الأئمة رحمهم الله).[٣]

وقال ابن حجر: (والذي يتحصل من الأدلة: أن حسن الصوت بالقرآن مطلوب، فإن لم يكن حسنا فليحسنه ما استطاع، كما قال ابن أبي مليكة).[٤]

وقال أيضا: (كان بين السلف اختلاف في جواز القراءة بالألحان، أما تحسين الصوت، وتقديم حسن الصوت على غيره، فلا نزاع في ذلك).[٥]

يقول الإمام أحمد: (يحسن القارئ صوته بالقرآن، ويقرؤه بحزن وتدبر، وهو معنى قوله ﷺ (ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي يتغنى بالقرآن).[٦]

---

(١) التبيان ١٠٥، وانظر: رياض الصالحين: نزهة المتقين ٧٤٧/١، فضائل القرآن لابن كثير ص ١٠٦.١٠٧.

(٢) سنن أبي داود: كتاب الوتر، باب استحباب الترتيل في القراءة ١٥٧/٢، وصحح إسناده ابن حجر في الفتح ٨٧/١٩.

(٣) فضائل القرآن ص ١١١.

(٤) فتح الباري ٨٧/١٩.

(٥) فتح الباري ٨٦/١٩، وانظر: زاد المعاد ٤٨٣/١ .٤٩٣، الإتقان ٦٨٦/٢.

(٦) الآداب الشرعية ٢٩٧/٢.

ويقول النووي: (أجمع العلماء ﷺ، من السلف والخلف، من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمصار وأئمة المسلمين، على استحباب تحسين الصوت بالقرآن، وأقوالهم وأفعالهم مشهورة نهاية الشهرة).[١]

وفي مسألة التلحين في قراءة القرآن خلاف مشهور، عرضه ابن القيم، ثم قال: (وفصل النزاع أن يقال: التطريب والتغني على وجهين.

أحدهما: ما اقتضته الطبيعة وسمحت به من غير تكلف ولا تمرين ولا تعليم، بل إذا خلي وطبعه واسترسلت طبيعته جاءت بذلك التطريب والتلحين، فذلك جائز، وإن أعان طبيعته بفضل تزيين وتحسين، كما قال أبو موسى الأشعري للنبي ﷺ: (لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا)، والحزين ومن هاجه الطرب والحب والشوق، لا يملك من نفسه دفع التحزين والتطريب في القراءة، ولكن النفوس تقبله وتستحليه لموافقته الطبع، وعدم التكلف والتصنع فيه، فهو مطبوع لا متطبع، وكلف لا متكلف، فهذا هو الذي كان السلف يفعلونه ويستمعونه، وهو التغني الممدوح المحمود، وهو الذي يتأثر به التالي والسامع، وعلى هذا الوجه تحمل أدلة أرباب هذا القول كلها.

الوجه الثاني: ما كان من ذلك صناعة من الصنائع، وليس في الطبع السماحة به، بل لا يحصل إلا بتكلف وتصنع وتمرن، كما يتعلم أصوات

---

(١) التبيان ص ١٠٣، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٨٠/٦.

الغناء بأنواع الألحان البسيطة والمركبة على إيقاعات مخصوصة، وأوزان مخترعة، لا تحصل إلا بالتعلم والتكلف، فهذه هي التي كرهها السلف وعابوها وذموها، ومنعوا القراءة بها، وأنكروا على من قرأ بها، وأدلة أرباب هذا القول إنما تتناول هذا الوجه، وبهذا التفصيل يزول الاشتباه، ويتبين الصواب من غيره، وكل من له علم بأحوال السلف، يعلم قطعا أنهم برآء من القراءة بألحان الموسيقى المتكلفة، التي هي إيقاعات وحركات موزونة معدودة محدودة، وأنهم أتقى لله من أن يقرأوا بها ويسوغوها، ويعلم قطعا أنهم كانوا يقرؤون بالتحزين والتطريب، ويحسنون أصواتهم بالقرآن).[1]

وبهذا التفصيل قال القسطلاني.[2]

وبذلك يتبين أن ترتيل اللفظ القرآني، وتحسين الصوت وتزيينه به، مقيد بعدم الغلو، منضبط بالحذر من تجاوز المقصود الشرعي.

يقول ابن كثير: (والغرض أن المطلوب شرعا، إنما هو التحسين بالصوت، الباعث على تدبر القرآن وتفهمه، والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة، فأما الأصوات بالنغمات المحدثة، المركبة على الأوزان والأوضاع الملهية والقانون الموسيقائي، فالقرآن ينزه عن هذا ويجل ويعظم، أن يسلك في أدائه هذا المذهب) وبعد أن أورد بعض الآثار قال: (وهذا يدل على أنه محذور كبير وهو قراءة القرآن بالألحان التي يسلك بها مذاهب الغناء، وقد

(١) زاد المعاد ١/٤٩٣ ـ ٤٩٤.

(٢) انظر: المواهب اللدنية ٣/٥٣٢ ـ ٥٣٣.

نص الأئمة رحمهم الله على النهي عنه، فأما إن خرج به إلى التمطيط الفاحش الذي يزيد بسببه حرفا أو ينقص حرفا فقد اتفق العلماء على تحريمه، والله أعلم).[1]

وقال أبو عبيد: (وعلى هذا المعنى تحمل هذه الأحاديث التي ذكرناها في حسن الصوت: إنما هو طريق الحزن والتخويف والتشويق.. لا الألحان المطربة الملهية).[2]

وقال النووي: (يستحب تحسين الصوت بالقراءة وتزيينها، ما لم يخرج عن حد القراءة بالتمطيط، فإن أفرط حتى زاد حرفا أو أخفى حرفا فهو حرام).[3]

ولما ذكر الغزالي ـ في آداب التلاوة ـ أن تحسين القراءة وترتيلها سنة، قيد ذلك بعدم المبالغة أو الوقوع في التمطيط المغير للنظم.[4]

وكذلك قيد السيوطي تحسين الصوت (بحيث لا يخرج إلى حد التمطيط)، وحين استحب الأخذ في تدريس المتعلمين المبتدئين، بطريقة التحقيق في القراءة، باعتبارها معينة على رياضة اللسان وتقويم النطق

(١) فضائل القرآن ص ١١٤ ـ ١١٨، وانظر: مختصر منهاج القاصدين ص ٥٢، الآداب الشرعية ٢/٣٠٢، الاستقامة ١/٢٤٦.

(٢) فضائل القرآن ص ٤٩، وانظر: جمال القراء ١/٩٧.

(٣) الأذكار ص ٩٢، وانظر: التبيان ص ١٠٥، تفسير القرطبي ١/١٤، ١٠/٢٢٠، الآداب الشرعية ٢/٢٩٧، إعجاز القرآن ص ٥١ ـ ٥٣.

(٤) انظر: إحياء علوم الدين ١/٣٩١.

واللفظ، وذلك بإشباع المدود، وتوضيح الهمزات، وإتمام الحركات، وتبيين الحروف وتفكيكها، اشترط في كل ذلك الحذر من التجاوز إلى حدود الإفراط.[١]

ومن صور هذا الإفراط: توليد الحروف من الحركات، وتكرير الراءات، وتحريك السواكن، وتطنين النونات بالمبالغة في أداء الغنات، والإسراف في المدود، والغلو في تطبيق بعض الصفات: كالهمس والقلقلة والصفير ونحوها.

ونقل السخاوي وغيره قول حمزة ـ أحد القراء السبعة ـ يوصي بعض من سمعه يبالغ ويفرط في المدود: (لا تفعل، أما علمت أن ما كان فوق الجعودة فهو قطط، وما كان فوق البياض فهو برص، وما كان فوق القراءة فليس بقراءة).[٢]

ومن قوله أيضا: (إن لهذا التحقيق منتهى ينتهي إليه ثم يكون قبيحا، مثل البياض له منتهى ينتهي إليه، وإذا زاد صار برصا، ومثل الجعودة لها منتهى تنتهي إليه، فإذا زادت صارت قططا).[٣]

يريد أن المبالغة تخرج القراءة عن دائرة الترتيل والتجويد المحمودة شرعا.

---

(١) الإتقان ٢/٦٣٦، ٦٨٧، وانظر: جمال القراء ٢/٥٣٠.

(٢) جمال القراء ٢/٥٢٧ من رواية ابن مجاهد عن عبد الله العجلي، وانظر الإتقان ٢/٦٣٦ ـ ٦٣٧.
والجعودة من الأوصاف الحسنة للشعر، والقطط شدة في الجعودة تخرجه عن الحسن. انظر: النهاية في غريب الحديث ١/١٧٥، ٤/٨١.

(٣) السبعة ص ٧٦ من رواية ابن مجاهد عن عبد الرحمن بن أبي حماد، وانظر: شرح المقدمة الجزرية ص ٥٢.

ولذا قال السخاوي في مطلع منظومته (عمدة المفيد)[١]:

يا من يروم تلاوة القرآن ... ويرود شأو أئمة الإتقان

لا تحسب التجويد مدا مُفْرِطا ... أو مد ما لا مد فيه لوانِ

أو أن تشدد بعد مد همزة ... أو أن تلوك الحرف كالسكران

أو أن تَفُوه بهمزة مُتَهَوِّعا ... فيفر سامعها من الغثيان

للحرف ميزان فلا تك طاغيا ... فيه ولا تك مخسر الميزان

فإذا همزت فجئْ به متلطفا ... من غير ما بُهْرٍ وغير توان

وامدد حروف المد عند مُسَكَّن ... أو همزة حَسَنا أخا إحسان

ومن خاتمتها:

رتل ولا تسرف وأتقن واجتنب ... نكرا يجيء به ذوو الألحان

وارغب إلى مولاك في تيسيره ... خيرا فمنه عون كل معان

ومما قاله السخاوي[٢] أيضا في التحذير من التجاوز في هذا المسار: (ومما ابتدع الناس في قراءة القرآن أصوات الغناء).

ثم ذكر أنواعا مما أحدثه الناس في القراءة على وجه الابتداع، وعد منها نوعا سماه التطريب، ثم بينه ليتضح مقصوده من هذا المسمى، فقال: (هو

---

(١) جمال القراء ٢/٥٤٤ـ٥٤٦.

(٢) جمال القراء ٢/٥٢٨ ـ ٥٢٩، وانظر: تفسير القرطبي ١/١١ ـ ١٥، التذكار ص ٩٨ ـ ١٠٦، الآداب الشرعية ٢/٢٩٧، التمهيد ص ٥٦، ٥٧، فيض القدير ٤/٦٨، إعجاز القرآن ص ٥١ ـ ٥٢، بلوغ الأماني ١٨/١٦، فتح المجيد ص ٣٣ـ ٥٥.

أن يترنم. أي القارئ. بالقرآن ويتنغم به، فيمد في غير مواضع المد، ويزيد في المد على ما ينبغي لأجل التطريب، فيأتي بما لا تجيزه العربية).

قال: (وأما قراءتنا التي نأخذ بها، فهي القراءة السهلة، المرتلة، العذبة الألفاظ، التي لا تخرج عن طباع العرب وكلام الفصحاء، على وجه من وجوه القراءات..).

وقال في بيان المراد بالتجويد: (إذا أتى بالقراءة مجودة الألفاظ، بريئة من الجور في النطق بها، لم تهجنها الزيادة، ولم يشنها النقصان).(١)

بل جعل من صور اللحن (الإفراط في التمطيط، والتعسف في التفكيك، والإسراف في إشباع الحركات وفي التشديد).(٢)

ولما تناول ابن الجزري بالبيان، معنى التجويد للقرآن، دعا إلى مجانبة الغلو في التطبيق، فقال: (التجويد هو حلية التلاوة، وزينة القراءة، وهو إعطاء الحروف حقوقها، وترتيبها مراتبها، ورد الحرف إلى مخرجه وأصله، وإلحاقه بنظيره وشكله، وإشباع لفظه، وتلطيف النطق به على حال صيغته وهيئته، من غير إسراف ولا تعسف، ولا إفراط ولا تكلف).(٣)

وقد سبقه إلى هذا التقييد ابن قتيبة، فحذر من التكلف والإفحاش،

---

(١) جمال القراء ٢/٥٢٥، وانظر ٢/٥٢٧.

(٢) جمال القراء ٢/٥٢٩.

(٣) التمهيد ص ٥٩، وانظر: شرح المقدمة الجزرية ص ٥١، ومما ساقه في وصف التكلف قول أبي بكر بن عياش: (إمامنا يهمز: (مؤصدة)، فأشتهي أن أسد أذني إذا سمعته يهمزها). ص ١١٥، وانظر: جمال القراء ٢/٤٦٧.

ومن تعمد الصعوبة في النطق، والقصد إلى المشقة والتضييق، ومن التوهم بأن مهارة القراءة لا تتحقق إلا بميل الشدق وانتفاخ الوريد، ثم قال: (وليس هكذا كانت قراءة رسول الله ﷺ، ولا خيار السلف ولا التابعين ولا القراء العالمين، بل كانت قراءتهم سهلة رسلة، وهكذا نختار لقراء القرآن في أورادهم ومحاريبهم، فأما الغلام الريض والمستأنف للتعلم: فنختار له أن يؤخذ بالتحقيق عليه، من غير إفحاش في مد أو همز أو إدغام، لأن في ذلك تذليلا للسان..).(١)

والمقصود التنبيه إلى أن الاعتناء بالتجويد وتزيين الصوت، ينبغي أن يقارنه اعتناء بسلامة الأداء.

ولقد كان رسولنا ﷺ موصوفا بالترتيل وحسن الصوت بالقرآن.

وصفته أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها فقالت: (كان يقرأ بالسورة فيرتلها، حتى تكون أطول من أطول منها).(٢)

وأخبر عنه البراء بن عازب رضي الله عنه فقال: (سمعت النبي ﷺ قرأ في العشاء بالتين والزيتون، فما سمعت أحدا أحسن صوتا منه).(٣)

وقال جبير بن مطعم رضي الله عنه: (سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما

---

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن ص ١١٢.

(٢) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب جواز النافلة قائما وقاعدا ١/٥٠٧.

(٣) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب الماهر بالقرآن ٦/٢٧٤٣، ومسلم. واللفظ له. في كتاب الصلاة، باب القراءة في العشاء ١/٣٣٩.

بلغ هذه الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴾ كاد قلبي أن يطير).[1]

كما اشتهر عدد من الصحابة ﷺ بروعة الترتيل، وبجمال الصوت في تلاوة الكتاب العزيز.

كان منهم ابن مسعود ﷺ.

عن أبي عثمان النهدي قال: (صلى بنا ابن مسعود المغرب بـ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾، والله لوددت أنه قرأ بسورة البقرة، من حسن صوته وترتيله).[2]

وسالم مولى أبي حذيفة ﷺ.

عن أم المؤمنين عائشة ﷺ قالت: أبطأت على عهد رسول الله ﷺ ليلة بعد العشاء، ثم جئت، فقال: (أين كنت)، قلت: كنت أستمع قراءة رجل من أصحابك، لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد، فقام وقمت معه حتى استمع له، ثم التفت إلي فقال: (هذا سالم مولى أبي حذيفة، الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا).[3]

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب تفسير سورة (والطور) ٤/١٨٣٩.

(٢) النشر ١/١٦٨.

(٣) رواه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة، باب في حسن الصوت بالقرآن ١/٤٢٥، قال البوصيري في الزوائد: (إسناده صحيح ورجاله ثقات)، والبيهقي في شعب الإيمان ٤/٢٨٦، والحاكم في المستدرك ٣/٢٥٠ وصححه، ووافقه الذهبي، وجود إسناده ابن كثير في الفضائل ص ١١٣، والذهبي في سير أعلام النبلاء ٢/١٧٦٢، وصححه الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة ص٦٦٧.

وأبو موسى الأشعري ﷺ.

وصفه بذلك رسول الله ﷺ حين قال له: (لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة، لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود).[1]

ووصفه بذلك أبو عثمان النهدي، وذكر أنه لم يسمع صوتا أحسن من صوته، ومما قاله: (إن كان ليصلي بنا، فنود أنه قرأ البقرة من حسن صوته).[2]

وعقبة بن عامر ﷺ.

كان من الموصوفين بأنه أحسن الناس صوتا بالقرآن، طلب منه عمر ﷺ أن يقرأ عليه، فقرأ من سورة براءة، فبكى عمر ﷺ.[3]

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن ٤/١٩٢٥، ومسلم .واللفظ له. في كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن ١/٥٤٦.

وفي رواية أبي يعلى وغيره: قال أبو موسى: (أما إني يا رسول الله لو علمت لحبرته لك تحبيرا). انظر: فضائل القرآن للنسائي ص ١١٥، المستدرك ٢/٥٢٩، مجمع الزوائد ٧/٣٥٥، فضائل القرآن لابن كثير ص ١١٢، سير أعلام النبلاء ١/٢٤٥٧.

ومعنى تحبيره: تحسين الصوت به، قال ابن الأثير: (يريد تحسين الصوت وتحزينه، يقال: حبرت الشيء تحبيرا إذا حسنته). النهاية في غريب الحديث ١/٣٢٧.

والمراد بالمزمار هنا: الصوت الحسن، وآل داود: هو داود عليه السلام نفسه، يقال في اللغة: آل فلان وقد يكون المقصود ذات الشخص، والمراد أن أبا موسى ﷺ أعطي صوتا حسنا في قراءة القرآن، من أنواع الأصوات الحسنة التي كانت لداود عليه السلام في قراءة الزبور. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٦/٨٠، فتح الباري ١٩/١١٢، بلوغ الأماني ١٨/١٥.

(٢) انظر: فضائل القرآن لأبي عبيد ص ٤٧، صفة الصفوة ١/٥٥٧، سير أعلام النبلاء ٢/٢٤٥٨.

(٣) انظر: فضائل القرآن لأبي عبيد ص ٤٧، سير أعلام النبلاء ٢/٢٦٩٨.

المبحث الثالث

التدبر مطلوب ومقصد

لقراءة القرآن الكريم - يقارنها ترتيل اللفظ، ويصاحبها تحسين الصوت - غاية مهمة، ومطلوب جليل.

ذلكم هو التدبر للآيات، والتفكر في المعاني، والإدراك للأمر والنهي، والفقه في الأحكام والمضامين، والتأثر بالوعد والوعيد، والتذكر والاتعاظ بمدلولات الكتاب العظيم.

وذلك باعتبار أن الانتفاع بالكلام والإفادة منه، مبني على فهمه وإدراكه ومعرفة المراد به.

قال الغزالي: (المقصود من القراءة التدبر، ولذلك سن فيه الترتيل، لأن الترتيل في الظاهر، ليتمكن من التدبر بالباطن).[1]

وعقد ابن الجزري فصلا (فيما يستفاد بتهذيب الألفاظ، وما تكون الثمرة الحاصلة عند تقويم اللسان) قال فيه: (اعلم أن المستفاد بذلك حصول التدبر لمعاني كتاب الله تعالى، والتفكر في غوامضه، والتبحر في مقاصده، وذلك أن الألفاظ إذا أجليت على الأسماع، في أحسن معارضها، وأحلى جهات النطق بها، كان تلقي القلوب وإقبال النفوس عليها، بمقتضى زيادتها في الحلاوة والحسن، على ما لم يبلغ ذلك المبلغ منها، فيحصل حينئذ

---

(١) إحياء علوم الدين ١/٣٩٥، وانظر: الإتقان ٢/٦٧٨.

الامتثال لأوامره، والانتهاء عن مناهيه، والرغبة في وعده، والرهبة من وعيده، والتصديق بخبره، والحذر من إهماله، ومعرفة الحلال والحرام، وتلك فائدة جسيمة، ونعمة لا يهمل ارتباطها إلا محروم).[1]

والمقصود أن ترتيل القراءة وتزيين الصوت سبيل إلى تأمل المراد، ومسلك إلى تفهم المعنى للقارئ والمستمع.

يقول ابن كثير في تفسير الآية الكريمة ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾: أي: (اقرأه على تمهل، فإنه يكون عونا على فهم القرآن وتدبره).[2]

ويقول أيضا عن الغاية من تزيين الصوت: (والغرض أن المطلوب شرعا، إنما هو التحسين الباعث على تدبر القرآن وتفهمه، والخشوع والخضوع، والانقياد والطاعة).[3]

هذا التأكيد على العلاقة الوثيقة بين الترتيل والتدبر، لا يلزم منه أن القارئ الذي لا يتمكن من الفهم، يرتفع في حقه استحباب الترتيل، أو تسقط مشروعيته بالنسبة له.

بل الترتيل مندوب إليه على كل حال، يشمله معنى العبودية لله جل شأنه، تأسيسا على ورود النص القرآني: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾.

قال الغزالي: (واعلم أن الترتيل مستحب لا لمجرد التدبر، فإن

---

(١) التمهيد ص٥٧. ٥٨ (مختصرا).
(٢) تفسير ابن كثير ٤/٤٣٤.
(٣) فضائل القرآن ص ١١٤. ١١٥.

العجمي الذي لا يفهم معنى القرآن، يستحب له في القراءة أيضا الترتيل والتؤدة، لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشد تأثيرا في القلب من الهذرمة والاستعجال).(١)

إن قراءة القرآن الكريم، مقرونة بالإخلاص، عبادة يثاب عليها القارئ، ومع ذلك فإن الحكمة من إنزاله لم تكن مجرد القراءة فحسب، دون تفكر في المعنى، وتذكر واتعاظ بالمضمون.

يقول ابن القيم: (وأما التأمل في القرآن فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر).(٢)

هذا ما يقرره القرآن: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾. [ص: ٢٩].

ذلك أن فهم القرآن طريق إلى زيادة الإيمان، وإلى قوته وتمكنه في قلب المؤمن: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا ﴾. [الأنفال: ٢].

(وهذا أمر يجده المؤمن، إذا تليت عليه الآيات: زاد في قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الإيمان ما لم يكن، حتى كأنه لم يسمع الآية إلا حينئذ، ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير والرهبة من الشر ما لم يكن،

(١) إحياء علوم الدين ١/٣٨٨، وبنحوه قال النووي في التبيان ص ٨٦، وانظر: الإتقان ٢/٦٧٧.

(٢) مدارج السالكين ١/٣٤٢، وانظر: تفسير المنار ١/٤٤٩، فتح القدير ٤/٤٣٠.

فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته، وهذه زيادة الإيمان).(١)

أما قراءة الألفاظ مجردة عن الوعي والتدبر، معزولة عن التأثر والتذكر، فهو أمر مشترك بين الناس: المؤمن والمنافق، التقي والفاجر، ولذا شبه الرسول ﷺ المنافق الذي يقرأ القرآن بالريحانة: (ريحها طيب وطعمها مر).(٢)

والآية الكريمة تقرن التذكر بالتدبر باعتباره مآلا له وثمرة، إذ يتأسس الاتعاظ على الفهم، فالمؤمن يقرأ ويتأمل محاولا فهم المراد، يعقب ذلك اتعاظ وتأثر بالمعنى، فيجزم بالتصديق إن كان خبرا، ويعزم على الاهتداء والإذعان إن كان أمرا وطلبا.

إن (قراءة الألفاظ لا تفيد الهداية وإن كان القارئ يفهم مدلولاتها، لأن هذا الفهم من قبيل التصور، وما التصور إلا خيال يلوح ويتراءى، ثم يغيب ويتناءى، وإنما الفهم فهم التصديق والإذعان، ممن يتدبر الكتاب مستهديا مسترشدا، ملاحظا أنه مخاطب به من الله تعالى، ليأخذ به فيهتدي ويرشد).(٣)

ولذا قال ابن عثيمين: (وقوله: ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ بيان أنه نزل

(١) مجموع الفتاوى ٧/٢٢٨.

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب إثم من راءى بقراءة القرآن ٤/١٩٢٨، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة حافظ القرآن ١/٥٤٩.

(٣) تفسير المنار ١/٤٤٨ (مختصرا).

للتذكر والاتعاظ، وكم من إنسان يقرأ القرآن ولكنه من أعداء القرآن لأنه لم يتذكر به ولم ينتفع به).(١)

ومضمون هذه الآية الكريمة متعلق بما ورد في قول الله جل وعلا: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ ﴾. [الأنعام: ١٥٥].

فالتدبر والتذكر هنا سبيل إلى الاتباع هناك، باعتبار (أن الاتباع فرع عن معرفة المعنى).(٢)

وهو السبيل إلى تحصيل القابلية في القلب لقوة التأثير القرآني: (﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾. [الحشر: ٢١].

ولقد أنعم الله جل وعلا على المؤمنين ببعثة نبيه ﷺ، يجمع لهم في رسالته بين التلاوة والتعليم والتزكية:

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾. [البقرة: ١٢٩].

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾. [آل عمران: ١٦٤].

وفي ذلك دلالة على أهمية إتباع القراءة للألفاظ، بتفهم معاني الآيات،

---

(١) شرح أصول في التفسير ص ٢٠، وانظر: مفتاح دار السعادة ١/٢٥١.

(٢) شرح أصول في التفسير ص ٢١.

ومعرفة مرادها ومقاصدها، وإدراك ما تشتمل عليه من الأمر والنهي، والحلال والحرام، والأخبار والمواعظ، والثواب والعقاب، والوقوف من خلال ذلك على استبانة سبيل الخير والشر، والفرقان بين الحق والباطل، والتمييز بين الهدى والضلال.

إن تحقيق هذا المقصد جزء من مسؤولية المسلم في النصيحة للقرآن الكريم، والتي تضمنها حديث تميم الداري ﷺ، أن النبي ﷺ قال: (الدين النصيحة) ثلاثا، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: (لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم).(١)

يقول ابن رجب: (وأما النصيحة لكتاب الله: فشدة حبه وتعظيم قدره، إذ هو كلام الخالق، وشدة الرغبة في فهمه، وشدة العناية لتدبره، والوقوف عند تلاوته، لطلب معاني ما أحب مولاه أن يفهمه عنه، ويقوم به له بعد ما يفهمه، وكذلك الناصح من العباد: يفهم وصية من ينصحه، وإن ورد عليه كتاب منه عني بفهمه، ليقوم عليه بما كتب فيه إليه، فكذلك الناصح لكتاب ربه: يعنى بفهمه، ليقوم لله بما أمر به كما يحب ويرضى، ثم ينشر ما فهم في العباد، ويديم دراسته: بالمحبة له، والتخلق بأخلاقه، والتأدب بآدابه).(٢)

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة ١/٧٤.

(٢) جامع العلوم والحكم ١/٢٢١.

ومن هنا تبرز أهمية اجتهاد القارئ، في استغلال استعداده الإدراكي السليم، واستثمار ملكة التفكير الصحيح لديه، بغية تحقيق ذلك المقصد الجليل: عقل كلام الله تبارك وتعالى، والاهتداء بآيات كتابه العزيز.

وعلى هذا تتأسس عبارات أهل العلم، في اعتبار التدبر من الآداب التي ينبغي أن تلازم القراءة، وتصاحب القارئ.

يقول النووي: (ينبغي للقارئ أن يكون شأنه الخشوع والتدبر والخضوع، فهذا هو المقصود المطلوب، وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب).[1]

ويقول القرطبي: (الواجب على من خصه الله بحفظ كتابه، أن يتلوه حق تلاوته، ويتدبر حقائق عبارته، ويتفهم عجائبه، ويتبين غرائبه)، (وينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ، ويعمل بما يتلو، فما أقبح لحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب، وهو لا يفهم ما يتلو، فكيف يعمل لما لا يفهم معناه).[2]

ويقول أيضا: (قال العلماء: يجب على القارئ إحضار قلبه، والتفكير عند قراءته، لأنه يقرأ خطاب الله الذي خاطب به عباده، فمن قرأه ولم يتفكر فيه، وهو من أهل أن يدركه بالتذكر والتفكر، كان كمن لم يقرأه، ولم

---

(١) الأذكار ص ٩١، وانظر: التبيان ص ٧٧، تذكرة السامع ص ٢٢.

(٢) تفسير القرطبي ١/٥، ١٨.

يصل إلى غرض القراءة من قراءته، فإن القرآن يشتمل على آيات مختلفة الحقوق، فإذا ترك التفكر والتدبر فيما قرأ، استوت الآيات كلها عنده فلم يرع لواحدة منها حقها، فثبت أن التفكر شرط في القراءة، يتوصل به إلى إدراك أغراضه ومعانيه، وما يحتوي عليه من عجائبه).[1]

وذكر الزركشي أن على القارئ (أن يشتغل قلبه في التفكر في معنى ما يلفظ بلسانه، فيعرف من كل آية معناها، ولا يجاوزها إلى غيرها حتى يعرف معناها).[2]

ويحدد السيوطي في هذا الاتجاه خطوات عملية، مستنبطة من المنهج النبوي الشريف، فيقول ضمن بيانه معنى التدبر وحقيقته: (وصفة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكر في معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى كل آية، ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى: اعتذر واستغفر، وإذا مر بآية رحمة: استبشر وسأل، أو عذاب: أشفق وتعوذ، أو تنزيه: نزه وعظم، أو دعاء: تضرع وطلب).[3]

وتلك هي سنة رسولنا ﷺ، في التأمل والتفكر والتفهم، وما يثمره ذلك من التذكر والتأثر والخشوع.

عن حذيفة رضي الله عنه قال: (صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة..،

---

(١) التذكار ص ١٢٥.

(٢) انظر: البرهان ١/٤٥٠. ٤٥٢.

(٣) الإتقان ٢/٦٧٨، وانظر إحياء علوم الدين ١/٣٩٦، ٤٠٠.

ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلا، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ).(١)

وفي رواية أحمد: (أن رسول الله ﷺ كان إذا مر بآية رحمة سأل، وإذا مر بآية فيها عذاب تعوذ، وإذا مر بآية فيها تنزيه لله ﷻ سبح).(٢)

وعن عوف بن مالك الأشجعي ﷺ قال: (قمت مع رسول الله ﷺ ليلة، فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ).(٣)

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ: قال: قال رسول الله ﷺ: (اقرأ علي)، قال: قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل، قال: (إني أشتهي أن أسمعه من غيري)، قال فقرأت النساء، حتى إذا بلغت: (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) قال لي: (كف) أو (أمسك)، فرأيت عينيه تذرفان.(٤)

وفي رواية مسلم: فرأيت دموعه تسيل.(٥)

---

(١) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل ١/٥٣٦ . ٥٣٧.

(٢) الفتح الرباني ٣/٢٣٨، ١٨/٢٢ . ٢٣.

(٣) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده ١/٥٤٤، والنسائي في كتاب الافتتاح، باب الدعاء في السجود ٢/٢٢٣، وانظر: الصحيح في فضائل القرآن ص ١٢٠.

(٤) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب البكاء عند قراءة القرآن ٤/١٩٢٧.

(٥) صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضل استماع القرآن ١/٥٥١.

قال القرطبي: (قال علماؤنا: بكاء النبي ﷺ إنما كان لعظيم ما تضمنته هذه الآية من هول المطلع وشدة الأمر، إذ يؤتى بالأنبياء عليهم السلام شهداء على أممهم بالتصديق والتكذيب، ويؤتى به ﷺ شهيدا على أمته وغيرهم).(١)

ذلكم هو ترجمان الخشوع في القلب، الذي يتسبب حسن تدبر القرآن في اتساعه ونمائه: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾. [الإسراء: ١٠٧ . ١٠٩].

فأهل الإيمان يقبلون الآيات، ويتأثرون بمواعظها، فيزدادون بذلك خشوعا.

وتلك هي دعوة القرآن لهم: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾. [الحديد: ١٦].

وخشوع القلب يتضمن جملة من المعاني: كاللين والتواضع، والتذلل والانكسار، والخشية والضراعة، والطمأنينة والسكون.

يقول ابن تيمية: (والخشوع يتضمن معنيين: أحدهما التواضع والذل، والثاني السكون والطمأنينة، وذلك مستلزم للين القلب المنافي للقسوة).(٢)

---

(١) التذكار ص ١٢٤ . ١٢٥.

(٢) مجموع الفتاوى ٧/٢٨، وانظر: ٢٢/٥٥٤ . ٥٥٥، المفردات ص ١٥٤ . ١٥٦، لسان العرب ٢/١١٦٥، ٢/١١٨٧، ترتيب القاموس ٢/٥٩ . ٦٠، ٢/٧٢، النهاية ٢/٣٤، ٢/٤٣.

ومعنى الآية الكريمة: أما حان لأهل الإيمان أن تخشع قلوبهم لأجل القرآن، وقد تتابع عليها من ذكر الله وما يتنزل من كلامه جل وعلا، ما يقتضي ذلك ويوجبه.

عن ابن مسعود ﷺ قال: (ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ إلا أربع سنين).[١]

ووصفهم في الآية بوصف الإيمان، باعتباره موجبا للخشوع وداعيا إليه.

قال ابن القيم: (دعاهم من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان، يعني: أما آن لهم أن يصلوا إلى الإحسان بالإيمان، وتحقيق ذلك بخشوعهم لذكره الذي أنزله إليهم).[٢]

والخشوع هنا بمعنى لين القلب ورقته، وذلته وخضوعه، كما قال أهل التفسير.

يقول ابن كثير: (أي: تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن، فتفهمه وتنقاد له، وتسمع له وتطيع).[٣]

---

(١) رواه مسلم في كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ ٣/٢٣١، وانظر: تفسير غريب القرآن ص ٤٥٣، تفسير ابن عطية ٥/٢٦٤، زاد المسير ٧/٣٠٥، البحر المحيط ٨/٢٢٢، أضواء البيان ٧/٨١٢.

(٢) مدارج السالكين ٢/٤٠٢.٤٠٣.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٣١٠، وانظر: تفسير الطبري ٢٧/٢٢٨، تفسير السمرقندي ٣/٣٨٤، ٣٨٥، تفسير الواحدي ٢/١٠٦٨، تفسير السمعاني ٥/٣٧٢، تفسير البغوي ٤/٢٩٧، زاد المسير ٧/٣٠٥، تفسير القرطبي ١٧/١٦١، شجرة المعارف ص ٧٥.

وفسر بعضهم الخشوع بالإخبات.[١]

والمفهومان متقاربان متداخلان في المعنى، إذ الإخبات يتضمن معنى الخشوع، وفي الخشوع معنى الإخبات.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى أن هذا الإخبات، هو أيضا من صنيع أهل العلم والإيمان، في استجابتهم للقرآن: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾. [الحج: ٥٤].

فهم بتدبرهم للقرآن، وتفكرهم في دلائله، وفقههم لآياته، يوقنون أنه الحق بلا ريب، فيزدادوا بذلك إيمانا إلى إيمانهم[٢]، ويترتب على هذا التدبر الموصل إلى زيادة التذكر والاهتداء، أن يتنامى الإخبات في قلوبهم لكلام ربهم سبحانه.

قال ابن قتيبة في معنى ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾: (أي: تخضع وتذل له قلوبهم).[٣]

وقال العز بن عبد السلام: (الإخبات هو التواضع لله، وثمرته الانقياد

---

(١) انظر: تفسير ابن عطية ٥/٢٦٤، البحر المحيط ٨/٢٢٢، نظم الدرر ٧/٤٤٧.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٧/١٩١، تفسير النسفي ٢/٤٤٩، تفسير ابن كثير ٣/٢٣٠، تفسير أبي السعود ٦/١١٤.

(٣) تفسير غريب القرآن ص ٢٩٤، وانظر: تفسير الطبري ١٧/١٩٢، تفسير ابن عطية ٤/١٢٩، زاد المسير ٥/٣٠٣، تفسير البيضاوي ٢/٩٣، تفسير ابن كثير ٣/٢٣٠، تفسير أبي السعود ٦/١١٤، روح المعاني ١٧/١٧٤.

لأمر الله).[١]

يقول ابن القيم: (المخبت: المطمئن، فإن الخبت من الأرض ما اطمأن فاستنقع فيه الماء، فكذلك القلب المخبت قد خشع واطمأن، كالبقعة المطمئنة من الأرض يجري إليها الماء فيستقر فيها، وعلامته أن يسجد بين يدي ربه إجلالا له وذلا وانكسارا بين يديه).[٢]

كما يتسبب حسن التدبر للكتاب العزيز في اقشعرار الجلود من خشية الله، ولين القلوب إلى ذكر الله.

يقول الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. [الزمر: ٢٢.٢٣].

تتضمن الآية الأولى وعيدا بالعذاب والهلاك، للذين قست قلوبهم عند ذكر الله جل شأنه، فلا تلين للقرآن ولا تتأمله ولا تقبله، ولا تؤمن به ولا تصدقه، مقررة أنهم في بعد ظاهر عن الحق، وانحراف واضح عن الهدى.[٣]

وتكشف الآية الثانية أثر القرآن في قلوب المؤمنين.

---

(١) شجرة المعارف ص ٧٥.

(٢) الروح ص ٢٩٠، وانظر: ص ٢٩٩.٣٠٠.

(٣) انظر: معاني القرآن للزجاج ١/١٦٠، تفسير الطبري ٢٣/٢٠٩، تفسير السمرقندي ٣/١٧٤، تفسير ابن كثير ١/١١٧، ٤/٥٠.

وأحسن الحديث هو القرآن، كتاب الله سبحانه.

وصفته الآية أولا بأنه ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾: يشبه بعضه بعضا في الحسن والبلاغة والإعجاز، ويصدق بعضه بعضا، فلا تناقض فيه ولا اختلاف.

ووصفته ثانيا بأنه ﴿مَّثَانِىَ﴾: يتكرر فيه الوعد والوعيد، ويعاد الأمر والنهي، وتثنى وتردد المواعظ والقصص.[١]

ووصفته ثالثا بأنه ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

والمقصود أن أهل الإيمان تتأثر قلوبهم بكلام ربهم، وتخشع لآياته، وترق وتخضع لذكره، وهم في ذلك بين الخوف والرجاء، فإذا ذكر وعيد الله وعقابه، أصابتهم الخشية، وتداخلهم الخوف، فوجلت القلوب، واقشعرت الجلود، وإذا ذكر وعد الله وثوابه، عاد بهم الرجاء والنظر إلى سعة رحمة الله، فتهدأ جلودهم وترق بعد قشعريرتها، وتسكن قلوبهم وتلين بعد خشيتها.

قال العز بن عبد السلام: (المراد ههنا بلين القلب: رجاء فضله وجوده، لأنه قابله باقشعرار الجلود، الذي هو من آثار الخوف).[٢]

يقول ابن كثير: (هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن

---

(١) انظر: تفسير غريب القرآن ص ٣٨٣، تفسير البغوي ٤/٧٦، تفسير الزمخشري ٤/١٢٥، تفسير القرطبي ١٥/١٦٢.١٦٣، القواعد الحسان ص ٦٠.

(٢) شجرة المعارف ص ٧٦.

العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه).(١)

وفي القرآن أيضا ثناء على أهل الإيمان من النبيين وأتباعهم، بوصف السماع المؤثر الواعي لكلام ربهم تبارك وتعالى:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾. [المائدة: ٨٣].

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾. [مريم: ٥٨].

يقول ابن تيمية في هذا الوصف المحمود: (ولهذا السماع من المواجيد العظيمة، والأذواق الكريمة، ومزيد المعارف والأحوال الجسيمة، ما لا يسعه خطاب، ولا يحويه كتاب، كما أن لتدبر القرآن وتفهمه من مزيد العلم والإيمان، ما لا يحيط به بيان).(٢)

وفي المقابل وصف القرآن مشركي قريش، وأشباههم من أهل الكفر

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٥٠. ٥١، وانظر: معاني القرآن للزجاج ٤/٣٥٢، تفسير غريب القرآن ص ٣٨٣، معاني القرآن للنحاس ٦/١٦٩، تفسير السمرقندي ٣/١٧٥، تفسير البغوي ٤/٧٦، تفسير الزمخشري ٤/١٢٦، تفسير القرطبي ١٥/١٦٢، التسهيل ٣/١٩٤، البحر المحيط ٧/٤٢٣.

(٢) التحفة العراقية ص ٤٤٣.

المعادين للإسلام، بأن علاقتهم بآيات الكتاب، مبنية على النفور والخصومة، والاشمئزاز والكراهة، والإعراض والغفلة، والتلاعب والسخرية، ليس لهم في العلم بها وتدبر دلائل الحق فيها إرادة، ولا لهم في تأمل ما تحويه من العظة والذكرى مقصد أو غاية:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. [لقمان: ٦. ٧].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾. [فصلت: ٢٦].

عن مجاهد قال: (بالمكاء والتصفير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ).(١)

ومما وصفهم به القرآن أيضا: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾. [الأنبياء: ٢. ٣].

إنهم لا يرغبون في الاستماع النافع المؤثر، المثمر للإذعان والقبول، ولذا يتشاغلون بالتهكم والاتهام، بعيدا عن تدبر الألفاظ، وتفهم المعاني، واتعاظ القلوب.

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/١١٢، تفسير مجاهد ٢/٥٧١، والمكاء بمعنى التصفير بالفم أو بتشبيك الأصابع والنفخ فيها. انظر: تفسير غريب القرآن ص ١٧٩، بصائر ذوي التمييز ٤/٥١٦.

قال الرازي: (لأن الانتفاع بما يسمع، لا يكون إلا بما يرجع إلى القلب من تدبر وتفكر، وإذا كانوا عند استماعه لاعبين، حصلوا على مجرد الاستماع، الذي قد تشارك البهيمة فيه الإنسان).[١]

والآيات تصف قلوبهم بأنها لاهية، تأكيدا لذمهم، وإشارة إلى أن لهو قلوبهم هو العلة في تشاغلهم وإعراضهم عن الذكر المنزل من ربهم.

عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ قال: (غافلة قلوبهم).[٢]

قال القرطبي: (أي: ساهية قلوبهم، معرضة عن ذكر الله، متشاغلة عن التأمل والتفهم).[٣]

والمقصود أن قلوب هؤلاء قد استولت عليها الغفلة عن شواهد الوحدانية، والتلهي بإرادة الدنيا وشهوتها، والاستكبار عن الحق، والانشغال بالباطل، عن النظر في القرآن، وتفهم معانيه، والتأمل في حججه، فسهت عن ذكر الله، وأعرضت عن وحيه، وانصرفت عن الإيمان والهدى، فلما تلهت القلوب عن التذكر والتبصر، أثر ذلك في الأسماع، فلم يثمر سماع الآيات انتفاعا، ولم ينتج عظة أو عبرة، لأنه سماع لا وعي معه ولا تدبر، ولا حركة فيه للقلب ولا أثر، بل سماع يصاحبه اللعب، ويخالطه الصخب، فصار هو وعدم الاستماع سواء، لا ثمرة ترجى من ورائه ولا جدوى.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١٤١/٢٢، وانظر: تفسير السعدي ٢٦٦/٣.

(٢) تفسير الطبري ٢/١٧، الدر المنثور ٦١٦/٥.

(٣) تفسير القرطبي ١٧٨/١١، وانظر: تفسير البغوي ٢٣٨/٣.

ولذا كان التوجيه القرآني للمؤمنين بالإنصات لكلام الله تعظيما وإجلالا، على الضد من شغب المعاندين: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾. [الأعراف: ٢٠٤].

وليكون الإصغاء وسيلة إلى عقل الألفاظ، وفهم الآيات، وإلى تدبر المعاني، والاعتبار بالمواعظ.[١]

والتدبر هو المقصد الذي وجه به رسول الله ﷺ أصحابه ﷺ، في مثل قوله ﷺ: (تعلموا كتاب الله وتعاهدوه..).[٢]

إذ يشمل هذا التوجيه الشريف ما يتعلق بصحة اللفظ وحفظه وترتيله، وما يتعلق بفقه المعنى وإدراك المراد.

وقد التزم الصحابة الكرام ﷺ منهج نبيهم ﷺ، فكانوا يقرأون القرآن ويسمعونه ويتلقونه بغرض الفقه والعلم، وبقصد التطبيق والعمل.

عن ابن مسعود ﷺ قال: (كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات، لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن).[٣]

وعنه أيضا: (كنا إذا تعلمنا من النبي ﷺ عشر آيات، لم نتعلم من العشر

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٩/ ١٦٢، تفسير القرطبي ٢٢٤/٧. ٢٢٥، تفسير ابن كثير ٢٨٠/٢.

(٢) رواه أحمد في المسند: الفتح الرباني ٧/١٨، والدارمي في سننه ٧١٤/٢، والبيهقي في شعب الإيمان ١٤٢/٤، والطبراني كما في مجمع الزوائد ٣٤٩/٧ قال الهيثمي: (ورجال أحمد رجال الصحيح)، وأشار القرطبي في التذكار ص ١٠٤ إلى جودة إسناده، وصححه الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة ص ٥٢٠.

(٣) تفسير الطبري ٣٥/١، وانظر: المستدرك ٧٤٣/١. ٧٤٤.

التي نزلت بعدها حتى نعلم ما فيها، يعني: من العلم).[١]

وعن تلميذه أبي عبد الرحمن السلمي قال: (كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن، لم نتعلم العشر التي بعدها، حتى نعرف حلالها وحرامها، وأمرها ونهيها).[٢]

وعنه أيضا قال: (حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن، كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات، لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا).[٣]

قال ابن تيمية: (ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة).[٤]

وممن نقل عنهم ذلك: عبد الله بن عمر ﵄، فقد روي أنه (مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها).[٥]

يقول ابن قتيبة: (كان أصحاب رسول الله، صلى الله عليه، ورضي عنهم .وهم مصابيح الأرض وقادة الأنام ومنتهى العلم .إنما يقرأ الرجل

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/٢٥٢٩، وانظر: شعب الإيمان ٤/١٢٩، ١٣٠.

(٢) تفسير القرطبي ١/٣٠.

(٣) مجموع الفتاوى ٥/١٥٦، ٧/١٦٨، ١٣/٣٣١، وانظر: تفسير الطبري ١/٣٦، المسند: الفتح الرباني ١٨/٩، تفسير القرطبي ١/٣٠، سير أعلام النبلاء ٢/٢٣٦٤، ٢٣٦٥.

(٤) مجموع الفتاوى ١٣/٣٣١.

(٥) الموطأ ١/٢٠٥، وانظر: شعب الإيمان ٤/١٣٠، مجموع الفتاوى ١٣/٣٣١.

وروي أيضا أن عمر ﵁ تعلم البقرة في اثنتي عشرة سنة، وأنه لما ختمها نحر جزورا. انظر شعب الإيمان ٤/١٣١.

منهم السورتين والثلاث والأربع والبعض والشطر من القرآن، إلا نفرا منهم وفقهم الله لجمعه وسهل عليهم حفظه).[١]

وعلى هذا يحمل قول أنس ﵁: (كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا).[٢]

قال ابن قتيبة: (أي: جل في عيوننا وعظم في صدورنا).[٣]

إن تدبر كلام الله جل وعلا وسيلة إلى تعلمه والفقه فيه، وذلك سبيل إلى تحصيل الفضيلة العظيمة، ونيل المنزلة العالية، التي بشر بها رسول الله ﷺ:

عن أبي ذر ﵁ قال: قال لي رسول الله ﷺ: (يا أبا ذر، لأن تغدو فتَعلَّم آية من كتاب الله، خير لك من أن تصلي مئة ركعة).[٤]

وعن عثمان ﵁ عن النبي ﷺ قال: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)، وفي رواية: (إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه).[٥]

وتعلم القرآن هنا لا يعني القراءة أو الحفظ فقط، بل يشمل كذلك فهم معانيه، والفقه في أحكامه.

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٢٤٩.

(٢) رواه أحمد في المسند: الفتح الرباني ١٨/٣١، وانظر: مجموع الفتاوى ١٣/٣٣١.

(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٢٤٩.

(٤) رواه ابن ماجه في المقدمة، باب فضل من تعلم القرآن وعلمه ١/٧٩، وحسن المنذري إسناده. انظر: الترغيب والترهيب ٢/٣٥٥. و(تعلم) بحذف التاء، أي: تتعلم.

(٥) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن ٤/١٩١٩.

ولذا قال ابن حجر في شرح الحديث: (فإن قيل: فيلزم على هذا أن يكون المقرئ أفضل من الفقيه، قلنا: لا، لأن المخاطبين بذلك كانوا فقهاء النفوس، لأنهم كانوا أهل اللسان، فكانوا يدرون معاني القرآن بالسليقة، أكثر مما يدريها من بعدهم بالاكتساب، فكان الفقه لهم سجية، فمن كان في مثل شأنهم شاركهم في ذلك، لا من كان قارئا أو مقرئا محضا، لا يفهم شيئا من معاني ما يقرؤه أو يقرئه).(١)

وفي هذا المعنى أيضا أورد القرطبي حديث رسول الله ﷺ: (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة).(٢)

ثم قال: (ولا يكون ماهرا بالقرآن، حتى يكون عالما بالفرقان، وذلك بأن يتعلم أحكامه، فيفهم عن الله تعالى مراده وما فرض عليه).(٣)

وهو مضمون قول مجاهد: (أحب الناس في القراءة إلى الله أعقلهم عنه).(٤)

يقول ابن تيمية: (رب رجل يحفظ حروف العلم، التي أعظمها حفظ حروف القرآن، ولا يكون له من الفهم، بل ولا من الإيمان، ما يتميز به على من أوتي القرآن. يعني فهمه والاتعاظ والعمل به. ولم يؤت حفظ حروف العلم).

---

(١) فتح الباري ١٩/٩١، ثم قال أيضا: (وكيفما كان، فهو مخصوص بمن علم وتعلم، بحيث يكون قد علم ما يجب عليه عينا).

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب تفسير سورة عبس ٤/١٨٨٢، ومسلم. واللفظ له. في كتاب صلاة المسافرين، باب فضل الماهر بالقرآن ١/٥٥٠.

(٣) التذكار ص ٥٢، وانظر: تفسير القرطبي ١/١٨. ١٩.

(٤) تفسير القرطبي ١٩/٢٦.

ثم قال: (وأما الذي أوتي العلم والإيمان، فهو مؤمن عليم، فهو أفضل من المؤمن الذي ليس مثله في العلم، مثل اشتراكهما في الإيمان).(١)

ولذا كره السلف سرعة القراءة، التي تمنع من التدبر والتأمل، وتحجب عن الإدراك والتفهم.

قال الزركشي: (وتكره قراءة القرآن بلا تدبر).(٢)

وعليه يحمل حديث رسول الله ﷺ: (لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث).(٣)

(أي: لا يفهم معاني القرآن، ولا يتدبر فيها ولا يتفكر).(٤)

ومما وصف رسول الله ﷺ به الخوارج قوله: (يقرؤون القرآن لا يجاوز حلوقهم، أو حناجرهم).(٥)

---

(١) مجموع الفتاوى ١١/٣٩٧. ٣٩٨، وانظر: ١٣/ ٣٧٦. ٣٧٨، زاد المعاد ١/٣٣٨.

(٢) البرهان ١/٤٥٥.

(٣) رواه أبو داود في كتاب شهر رمضان، باب تحزيب القرآن ٢/١١٦، والترمذي في كتاب القراءات ٥/١٩٨، باب ما جاء أن القرآن أنزل على سبعة أحرف، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة، باب في كم يستحب ختم القرآن ١/٤٢٨، وأحمد في المسند: الفتح الرباني ١٨/١٩، والبيهقي في شعب الإيمان ٤/٣٠٢، وصحح إسناده النووي في التبيان ص ٥٧، والأذكار ص ٨٨، وصححه الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة ص ٥٠٥.

(٤) عون المعبود ٣/١٦٥.

(٥) رواه البخاري في كتاب استتابة المرتدين، باب قتل الخوارج ٦/٢٥٤٠، ومسلم في كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم ١/٧٤٤.

وفي رواية لمسلم: (يتلون كتاب الله لينا رطبا).(١)

قال الزركشي: (ذمهم بإحكام ألفاظه، وترك التفهم لمعانيه).(٢)

وهو أحد التأويلين اللذين أوردهما القاضي عياض في بيان المراد، قال: (معناه لا تفقهه قلوبهم، ولا ينتفعون بما تلوا منه، ولا لهم حظ سوى تلاوة الفم والحنجرة والحلق، إذ بهما تقطيع الحروف).(٣)

وعن أبي وائل، أن رجلا قال لابن مسعود ﷺ: إني لأقرأ المفصَّل في ركعة(٤)، فقال عبد الله: (هذًّا كهذّ الشعر(٥)، إن أقواما يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم(٦)، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع).(٧)

قال النووي: (معناه أن قوما ليس حظهم من القرآن إلا مروره على اللسان، فلا يجاوز تراقيهم ليصل قلوبهم، وليس ذلك هو المطلوب، بل المطلوب تعقله وتدبره بوقوعه في القلب).(٨)

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم ١/٧٤٣، والمعنى: يقرأونه سهلا، لكثرة حفظهم. انظر: شرح النووي ٧/١٤٦.

(٢) البرهان ١/٤٥٥، وانظر: فتح الباري ١٩/١٢٠.١٢١.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٧/١٥٩، قال القاضي: (والثاني: معناه: لا يصعد لهم عمل ولا تلاوة، ولا يتقبل).

(٤) قال النووي ٦/١٠٥: (معناه: أن الرجل أخبر بكثرة حفظه وإتقانه).

(٥) قال النووي ٦/١٠٥: (معناه في تحفظه وروايته، لا في إنشاده وترنمه، لأنه يرتل في الإنشاد والترنم في العادة)، والهذ (بتشديد الذال، وهو شدة الإسراع والإفراط في العجلة).

(٦) (جمع ترقوة، وهي العظم الذي بين النحر والعاتق). فتح الباري ٢٦/١٢٨.

(٧) رواه البخاري في كتاب صفة الصلاة، باب الجمع بين السورتين في الركعة ١/٢٦٩، ومسلم . واللفظ له. في كتاب صلاة المسافرين، باب ترتيل القراءة واجتناب الهذ ١/٥٦٣.

(٨) شرح النووي ٦/١٠٥.

وفي سنن أبي داود: (فقال: أهذا كهذ الشعر، ونثرا كنثر الدقل).(١)

قال الخطابي: (الهذ سرعة القراءة، وإنما عاب عليه ذلك، لأنه إذا أسرع القراءة ولم يرتلها، فاته فهم القرآن وإدراك معانيه).(٢)

وقال ابن حجر: (وفي هذا الحديث من الفوائد: كراهة الإفراط في سرعة التلاوة، لأنه ينافي المطلوب من التدبر والتفكر في معاني القرآن).(٣)

ومن وصايا ابن مسعود ﷺ في هذا الشأن كذلك: (لا تهذوا القرآن هذ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة).(٤)

وعنه أيضا قال: (من أراد العلم فليثور القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين).(٥)

قال ابن الأثير: (أي: لينقر عنه، ويفكر في معانيه وتفسيره).(٦)

وعن ابن عباس ﷺ قال: (الذي يقرأ القرآن ولا يحسن تفسيره،

---

(١) سنن أبي داود: كتاب شهر رمضان، باب تحزيب القرآن ٢/١١٧، وانظر: فتح الباري ١٩/١٠٨، والدقل: رديء التمر ويابسه، ولذلك لا يجتمع، ويكون متثورا. انظر: النهاية في غريب الحديث ٢/١٢٧.

(٢) معالم السنن ٢/١١٥.

(٣) فتح الباري ٤/١٧٠، وانظر: أخلاق العلماء ص ٥٢.

(٤) زاد المعاد ١/ ٣٤٠، وانظر: شعب الإيمان ٤/٢٠٧، ٢٠٨.

(٥) مجمع الزوائد ٧/٣٤٢ .٣٤٣، وانظر: فضائل القرآن لأبي عبيد ص ٢٥، شعب الإيمان ٤/١٣٢.١٣٣.

(٦) النهاية في غريب الحديث ١/٢٩٩.

كالأعرابي يهذ الشعر هذا).(١)

وعن سعيد بن جبير قال: (من قرأ القرآن ثم لم يفسره كان كالأعمى، أو كالأعرابي).(٢)

وهو ما حمل أبا بكر الصديق ﵁ على تفضيل العلم بمدلول الآية على حفظها، وعبر عن ذلك بقوله: (لأن أعرب آية من القرآن، أحب إلي من أن أحفظ آية).(٣)

والظاهر أن المراد بالإعراب هنا: التفسير وبيان المراد من اللفظ، والوقوف على دقائق المعنى.(٤)

وعن عائشة ﵂ أنها سمعت رجلا يقرأ، يهذ القرآن هذا، فقالت: (ما قرأ هذا وما سكت).(٥)

ولما ذكر لها ﵂: أن ناسا يقرأون القرآن في الليلة مرة أو مرتين، قالت: (أولئك قرأوا ولم يقرأوا).

تشير بذلك إلى أنها لا تحمد طريقتهم في العجلة المؤثرة على حسن التدبر، والمعنى: (أنهم قرأوا القرآن بلسانهم، ولم تفقهه قلوبهم، ولم تتأثر بما فيه).(٦)

---

(١) الإتقان ٦/٢٢٧٠، وانظر: معاني القرآن للنحاس ١/٤٢، تفسير ابن عطية ١/٢٦.
(٢) تفسير الطبري ١/٣٦.
(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٢٨، وانظر: الإتقان ٦/٢٢٧١.
(٤) انظر: الإتقان ٣/٧٣٠، ٦/٢٢٧٢.
(٥) الزهد لابن المبارك ص ١٧٨.
(٦) بلوغ الأماني ١٨/١٦، وانظر: الإتقان ٢/٦٦١.

ولذا عقبت ﵂، بذكر قيامها مع رسول الله ﷺ، وهو يقرأ البقرة وآل عمران والنساء: (فلا يمر بآية فيها تخوف، إلا دعا الله ﷻ واستعاذ، ولا يمر بآية فيها استبشار، إلا دعا الله ﷻ ورغب إليه).(١)

ومن وصايا الشعبي: (إذا قرأت القرآن فأفهمه قلبك، وأسمعه أذنيك، فإن الأذنين عدل بين القلب واللسان، فإن مررت بذكر الله فاذكر الله، وإن مررت بذكر النار فاستعذ بالله منها، وإن مررت بذكر الجنة فسلها الله ﷻ).(٢)

وعن زيد بن ثابت ﵁، أن رجلا سأله: كيف ترى في قراءة القرآن في سبع، فقال زيد: (حسن، ولأن أقرأه في نصف ـ يعني نصف شهر ـ أو عشر أحب إلي، وسلني لم ذاك) قال: فإني أسألك، قال زيد: (لكي أتدبره وأقف عليه).(٣)

وعن ابن عباس ﵄، وقد قال له رجل: إني سريع القراءة، وإني أقرأ القرآن في ثلاث، فقال: (لأن أقرأ (البقرة) في ليلة فأدبرها وأرتلها، أحب إلي من أن أقرأ القرآن أجمع هذرمة).(٤)

---

(١) رواه أحمد: الفتح الرباني ١٨/١٦ ـ ١٧، وابن المبارك في الزهد ص ١٧٨، والبيهقي في شعب الإيمان ٤/٢٤٦ قال المحقق: (إسناده حسن)، وحسنه كذلك محقق الإتقان ٢/٦٦١، وانظر: بلوغ الأماني ١٨/١٧، الصحيح في فضائل القرآن ص ١٢٠ ـ ١٢١.
(٢) شعب الإيمان ٤/٢٤٧، وانظر: الزهد لابن المبارك ص ١٧٨.
(٣) الموطأ ١/٢٠١، وانظر: الزهد لابن المبارك ص ١٧٨، شعب الإيمان ٤/٢٠٨.
(٤) فضائل القرآن لأبي عبيد ص ٤٥، وانظر: الزهد لابن المبارك ص ١٧٨، شعب الإيمان
=

وعنه ﷺ أيضا قال: (لأن أقرأ (إذا زلزلت) و (القارعة) أتدبرهما، أحب إلي من أن أقرأ (البقرة) و (آل عمران) تهذيرا).[١]

وعن محمد بن كعب القرظي قال: (لأن أقرأ في ليلة حتى أصبح: (إذا زلزلت الأرض زلزالها)، و (القارعة)، لا أزيد عليهما، وأتردد فيهما وأتفكر، أحب إلي من أن أهدر القرآن هدرا) أو قال: (أنثره نثرا).[٢]

وتتكرر عبارات السلف في أهمية الاعتناء بفهم الآيات وتدبرها، والتفكر فيها والتأثر بها.

يقول إياس بن معاوية: (مثل الذين يقرأون القرآن، وهم لا يعلمون تفسيره، كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا، وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعة، لا يدرون ما في الكتاب، ومثل الذي يعرف التفسير، كمثل رجل جاءهم بمصباح، فقرأوا ما في الكتاب).[٣]

ويقول العز بن عبد السلام: (إنما أنزل الله كتابه ليتأدب عباده بآدابه

= ٤/٢٠٧، ٤/٢٩٥.

و(الهذرمة: السرعة في الكلام والمشي). النهاية ٥/٢٥٦، وقال النووي في التبيان ص ١٩٢: (الهذرمة: سرعة الكلام الخفي).

(١) إحياء علوم الدين ١/٣٨٨، وانظر: شعب الإيمان ٤/٢٩٦، والتهذير: من الهذر، وهو كثرة الكلام وتتابعه. انظر: النهاية ٥/٢٥٦.

(٢) التهذيب الموضوعي لحلية الأولياء ص ٦٣١، مصنف ابن أبي شيبة ١٥/٥١٧، الزهد لابن المبارك ص ٤٩.

(٣) تفسير ابن عطية ١/٢٦، تفسير القرطبي ١/٢١.٢٢.

ويتخلقوا بأخلاقه ويتأملوا ما فيه من الثناء على الله، وما لم يتدبر ذلك حتى يفهم لا يمكن العمل به).[١]

ويقول ابن تيمية: (ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك، وأيضا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا في فن من العلم - كالطب والحساب - ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم).[٢]

ويقول ابن القيم: (لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فهو الذي يورث المحبة والخوف والرجاء، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه، فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، وقراءة آية بتفكر خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن، فقراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب، ولهذا أنزل الله القرآن ليتدبر ويتفكر فيه ويعمل به، لا لمجرد تلاوته مع الإعراض عنه).[٣]

ومن كلامه أيضا: (فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته، من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها

---

(١) شجرة المعارف ص ٨١.

(٢) مقدمة في أصول التفسير ص ١٩٤.١٩٥، وانظر تعليق ابن عثيمين، وانظر أيضا: مختصر منهاج القاصدين ص ٥٣.٥٤.

(٣) مفتاح دار السعادة ١/٢٢٢ (مختصرا)، وانظر إعجاز القرآن ص ٥٣.

تطلع العبد على معالم الخير والشر، وعلى طرقاتها وأسبابها، وغاياتها وثمراتها ومآل أهلها، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطد أركانه..

وبالجملة: تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وماله من الكرامة إذا قدم عليه.

وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل، وتصده عن اقتحام طرق البدع والأضاليل، وتبعثه على الازدياد من النعم، بشكر ربه الجليل، وتبصره بحدود الحلال والحرام، لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل، وتثبت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويل، وتسهل عليه الأمور الصعاب غاية التسهيل، وتناديه كلما فترت عزماته: تقدم الركب وفاتك الدليل، فاللحاق اللحاق والرحيل الرحيل، وتحدو به وتسير أمامه سير الدليل، وكلما خرج عليه كمين من كمائن العدو، أو قاطع من قطاع الطريق، نادته: الحذر الحذر، فاعتصم بالله واستعن به، وقل حسبي الله ونعم الوكيل.

وفي تأمل القرآن وتدبره وتفهمه، أضعاف ما ذكرنا من الحكم والفوائد، وبالجملة: فهو أعظم الكنوز، طلسمه الغوص بالفكر إلى قرار معانيه).[1]

---

(١) مدارج السالكين ١/٣٤٢.٣٤٤ (مختصرا).

ومن قصيدته النونية:

فتدبر القرآن إن رمت الهدى ... فالعلم تحت تدبر القرآن[1]

ومن ثم ذكر أهل العلم أن تلاوة القليل من القرآن، مقرونا بالتدبر والتذكر، أولى من الزيادة والاستكثار، المجرد عن التفهم والتأثر بالآيات.

وقد عرض ابن الجزري للخلاف الوارد، في الأفضل بين الترتيل وقلة القراءة، أو السرعة مع كثرتها، ثم قال: (والصحيح بل الصواب ما عليه معظم السلف والخلف، وهو أن الترتيل والتدبر مع قلة القراءة أفضل من السرعة مع كثرتها، لأن المقصود من القرآن فهمه والتفقه فيه والعمل به، وتلاوته وحفظه وسيلة إلى معانيه).[2]

وإذا كان الإفراط في سرعة القراءة، قد يمنع القارئ من تحصيل التدبر، فإن المبالغة في شأن الترتيل، والتنطع في نطق الحروف، والغلو في تطبيق القواعد التجويدية، والوسوسة في ذلك، هو أيضا يمكن أن يكون حائلا يحجب القارئ عن تأمل القرآن وفهمه.

ولذا عد الغزالي من آداب التلاوة: (التخلي عن موانع الفهم، فإن أكثر الناس

---

(١) شرح القصيدة النونية ١/١٣٧.

(٢) النشر ١/١٦٦، وانظر: زاد المعاد ١/٣٣٨ .٣٣٩ قال ابن القيم: (والصواب في المسألة أن يقال: إن ثواب قراءة الترتيل والتدبر أجل وأرفع قدرا، وثواب كثرة القراءة أكثر عددا، فالأول: كمن تصدق بجوهرة عظيمة...، والثاني: كمن تصدق بعدد كثير من الدراهم....

وقال السخاوي في جمال القراء ٢/٥٤٧ (واعلم بأن القرآن العزيز يقرأ للتعلم، فالواجب التقليل والتكرير، ويقرأ للتدبر، فالواجب الترتيل والتوقف، ويقرأ لتحصيل الأجر بكثرة القراءة، فله أن يقرأ ما استطاع..).

منعوا عن فهم معاني القرآن، لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن)، ثم ذكر من هذه الحجب والموانع: (أن يكون الهم منصرفا إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، فهذا يكون تأمله . يعني القارئ. مقصورا على مخارج الحروف، فأنى تنكشف له المعاني).[١]

وأشار ابن تيمية وغيره إلى ذلك أيضا بنحو هذا المعنى.[٢]

ولا شك أن مما يؤسس لتحقيق هذا المقصد المنيف، في فهم القرآن العظيم: صفاء النية، وحضور القلب، وطلب الهدى، والتجرد عن الهوى، واستجماع ملكات التفكير والإدراك والفهم.

ومما يؤسس لذلك ويعين عليه أيضا: اعتياد القراءة في كتب السنة الشريفة المبينة للكتاب العزيز، والاطلاع على المرويات الصحيحة في أسباب النزول وأحوال من نزل فيهم القرآن، ومراجعة أقوال أئمة التفسير الثقات، يصاحب ذلك سؤال أهل العلم فيما يشكل على القارئ من معاني الآيات.[٣]

يقول ابن القيم: (إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه، منه إليه، فإنه خطاب منه سبحانه لك على لسان رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾. [ق: ٣٧].

وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفا على مؤثر مقتض، ومحل قابل،

(١) إحياء علوم الدين ١/٣٩٧. ٣٩٨.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ١٦/٥٠. ٥١، إغاثة اللهفان ١/٣٠٦، فتح المجيد ص ٣٨، ٣٩.

(٣) انظر: الموافقات ٣/٣١٠، ٣١١، فن التدبر ص ٥٤. ٦٠.

وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه: تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد.

فقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى ههنا، وهذا هو المؤثر.

وقوله: ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ أي: حي القلب.

وقوله: ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾ أي: وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا هو شرط التأثر بالكلام.

وقوله: ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي: شاهد القلب، حاضر غير غائب، قال ابن قتيبة: استمع لكتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثر، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله.

فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب، وذهوله عن معنى الخطاب، وانصرافه عنه إلى شيء آخر: حصل الأثر، وهو الانتفاع بالقرآن والتذكر).[١]

(١) الفوائد ص ٩ . ١٠، وانظر: فتح الرحمن ص ٣٢٤، مفتاح دار السعادة ١/٢٠٣ . ٢٠٤، إغاثة اللهفان ٢/٨٩٥. ٨٩٦.

المبحث الرابع

تلاوة المعنى هي الغاية

هذه هي الثمرة الكبرى للقراءة الموصوفة بالترتيل، المصحوبة بالتدبر، المقرونة بالتأثر: تلاوة القرآن بمعنى اتباعه والعمل به، والاستجابة لداعيه، والالتزام بمضمونه، وتطبيق منهاجه وشرعه.

وتحقيق ذلك يحتاج إلى تعويد للذات ومصابرة، وتربية للنفس ومجاهدة، ليستسلم القارئ لمراد الله تعالى في آياته، فيصدق بالوعد ويوقن بالخبر، ويذعن للحكم ويجيب الطلب: مجانبة للنهي وامتثالا للأمر.

ودون الوصول إلى هذا المقصد الإيجابي، وقطف هذه الثمرة المباركة، فإن ذلك يعني أن الهدف المراد من القراءة والترتيل لم يحصل، وأن الغاية المرجوة من التدبر والتفهم لم تتحقق، وأن مدلولات الكتاب العزيز لم تترجم إلى واقع محسوس، وأن المقروء من كلام الله جل شأنه لم يتحول إلى حركة وعمل، ولم تظهر آثاره في صياغة سلوك القارئ، وفي تكوين شخصيته، سواء كان ذلك في دائرة الشعائر التعبدية، أو في دائرة العلاقات الاجتماعية، أو في دائرة التعامل وتبادل المصالح المادية، أو في دائرة السمات الخلقية، أو في غير ذلك من المناحي المتعددة، والتي يحتكم المسلم فيها، بقلبه ولسانه وجوارحه، إلى معاني العبودية لله تبارك وتعالى، بمفهومها الشامل للحياة كلها.

ولذا قال ابن القيم بعد حديثه عن التلاوة اللفظية، التي تعني القراءة المبنية على إتباع الحروف والألفاظ بعضها بعضا: (وهذه التلاوة وسيلة

وطريقة، والمقصود التلاوة الحقيقية، وهي تلاوة المعنى واتباعه: تصديقا بخبره، وائتمارا بأمره، وانتهاء بنهيه، وائتماما به حيث ما قادك انقدت معه، فتلاوة القرآن تتناول تلاوة لفظه ومعناه، وتلاوة المعنى أشرف من مجرد تلاوة اللفظ، وأهلها هم أهل القرآن، الذين لهم الثناء في الدنيا والآخرة، فإنهم أهل تلاوة ومتابعة حقا).(١)

وقد أمر الله جل شأنه بتحقيق هذه الغاية في مثل قوله سبحانه: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾. [الأنعام: ١٥٥].

ففي الآية الكريمة دعوة لاتباع المنهج القرآني، والاتقاء والحذر من المسلك المضاد: مخالفة توجيهات هذا الكتاب المبارك.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾. [الزمر: ٥٥].

والمراد القرآن.(٢)

قال القرطبي: (أمرنا باتباع كتابه والعمل بمقتضاه).(٣)

وقد جمع القرآن في مهمة الرسالة النبوية الشريفة بين التعليم والتزكية، وتلك نعمة جليلة أنعم الله بها على عباده المؤمنين:

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/٥٥.

(٢) انظر: معاني القرآن للزجاج ٤/٣٥٨، تفسير ابن كثير ٤/٦٠.

(٣) تفسير القرطبي ١/٢٩٧.

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾. [البقرة: ١٢٩].

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾. [البقرة: ١٥١].

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾. [آل عمران: ١٦٤].

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾. [الجمعة: ٢].

ولفظ التزكية[١] يعني التطهير: تطهير النفس من رجس الكفر ودنس الفواحش، وتخليصها من مساوئ الأخلاق، وتنقيتها من دنيء الطباع والسلوك، كما يعني أيضا النماء والتكثير، والزيادة والتكميل: بالإيمان والتوحيد، وبالطاعة والاستقامة، وبصلاح العمل وسمو الخلق.

وعلى هذا فمفهوم التزكية هنا يجمع بين التخلية من الشر والرذائل، والتحلية بالخير والفضائل.

وقد ورد ذكر التزكية بعد التعليم في الآية الأولى، وذلك بحسب الترتيب الوجودي، والتدرج الواقعي: تلاوة القرآن، ثم تعلم المعاني وفقه الأحكام، ثم العمل الذي تتحقق به التزكية.

(١) انظر: تفسير الطبري ١/٥٥٨، المفردات ص ٢١٨. ٢١٩.

غير أن باقي الآيات تقدمت فيها التزكية على التعليم، ولعل ذلك - والعلم عند الله تعالى - لإبراز عظيم قدرها وأهميتها، والتنبيه إلى أنها الغاية الأسمى من تعلم الكتاب العزيز، والإشارة إلى جزيل النعمة الإلهية على العبد بتحصيلها والاتصاف بها.[١]

إن الدلالة في هذه الآيات بينة على أن الإسلام لا يفصل بين التعليم والتزكية، أو بين المعرفة والتربية، أو بين القراءة والتطبيق.

والاكتفاء بالأول دون الثاني مؤشر سوء، والله تعالى يقول في وصف اليهود: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾. [البقرة: ١٤٦].

فوصفهم بالمعرفة والعلم على وجه الذم، لا على وجه الثناء والمدح، لما لم يكن ذلك باعثا لهم إلى الإيمان واتباع سبيل الهدى والحق.

إن التربية مقصودة شرعا، بحيث يمكن ترجمة التصور الصحيح إلى واقع وسلوك، ومن ثم يتصالح القول والفعل، ويتحول العلم بالآيات إلى خلق وعمل.

ذلكم هو التوجيه القرآني، يبرز في مثل قول الله تبارك وتعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا

(١) انظر: تفسير ابن عاشور ١/٧٢٣، ٢/٤٩.

كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾. [آل عمران: ٧٩].

فالآية الكريمة تدعو المسلم إلى أن يكون ربانيا، وهو المستجيب للوحي الإلهي: معرفة وامتثالا.

قال ابن قتيبة: ((الربانيون): واحدهم رباني، وهم العلماء العاملون).[1]

وقال أبو جعفر النحاس: (معنى الرباني: العالم بدين الرب، الذي يعمل بعلمه، لأنه إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم).[2]

وقد بينت الآية أن من سماتهم تعلم القرآن وتعليمه، ودراسته بالقراءة والحفظ، وبالتدبر وإتقان الفهم: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾.

وفي ﴿ تُعَلِّمُونَ ﴾ قراءتان[3]، إحداهما بالتخفيف: أي: تعرفون الكتاب وتقرأونه، وتفهمونه وتعلمون ما فيه، والأخرى بالتشديد: أي: تعلمون الناس الكتاب.

فلما جمعوا بين العلم بالكتاب ودراسته، والعمل بمقتضاه، والتربية على منهاجه لذواتهم ولغيرهم، استحقوا أن يكونوا. بفضل الله. ربانيين.

---

(١) تفسير غريب القرآن ص ١٠٧، وانظر: تفسير الطبري ٣/٣٢٧ .٣٢٨، تفسير ابن عطية ٣/١٩٠. ١٩٢.

(٢) معاني القرآن ١/٤٢٨، وبعبارته قال القرطبي في تفسيره ٤/٧٩، وانظر: غريب القرآن للسجستاني ص ٢٣٥. ٢٣٦.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف، والباقون بالتشديد. انظر: إملاء ما من به الرحمن ١/١٤١، حجة القراءات ص ١٦٧.

يقول ابن جرير في تفسير الآية: (ولكن إذا آتاه الله ذلك فإنما يدعوهم إلى العلم بالله، ويحدوهم على معرفة شرائع دينه، وأن يكونوا رؤساء في المعرفة بأمر الله ونهيه، وأئمة في طاعته وعبادته، بكونهم معلمي الناس الكتاب، وبكونهم دارسيه).[1]

وقد بين ربنا جل وعلا أن التقوى هي غرض النزول القرآني:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾. [طه: ١١٣].

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾. [الزمر: ٢٧. ٢٨].

فهذه الآيات تقرر أن القرآن يقصد إلى تأصيل معاني التذكر والاعتبار، والتأثر والاتعاظ، وما يثمره ذلك من تقوى الله جل شأنه: بتحقيق التوحيد وفعل الأوامر، ومجانبة الشرك وترك المآثم.[2]

يقول ابن قتيبة: (لم يفرض الله على عباده أن يحفظوا القرآن كله، ولا أن يختموه في التعلم، وإنما أنزله ليعملوا بمحكمه، ويؤمنوا بمتشابهه، ويأتمروا بأمره، وينتهوا بزجره، ويحفظوا للصلاة مقدار الطاقة، ويقرأوا فيها الميسور).[3]

---

(١) تفسير الطبري ٣/٣٢٤.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٦/٢١٩، ٢٣/٢١٢ - ٢١٣، تفسير البغوي ٣/٢٣٢، ٤/٧٨.

(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٢٤٨.

وفي أنباء السابقين عبرة وعظة، ومن ذلك ما ذكره القرآن، من توجيه الله جل شأنه لنبيه يحيى عليه السلام: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍۢ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾. [مريم: ١٢-١٥].

والكتاب: التوراة، والقوة: الجد والاجتهاد، في التمسك بالكتاب: قراءة وفهما وعملا.

عن مجاهد في الآية ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ قال: (يعني: بجد في طاعة الله عز وجل).(١)

وعن ابن زيد قال: (القوة أن يعمل ما أمره الله به، ويجانب فيه ما نهاه الله).(٢)

قال ابن عطية: (وقوله: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: العلم به والحفظ له، والعمل به والالتزام للوازمه).(٣)

وقال السعدي: (أي: بجد واجتهاد، وذلك بالاجتهاد في حفظ ألفاظه، وفهم معانيه، والعمل بأوامره ونواهيه، هذا تمام أخذ الكتاب بقوة).(٤)

يقول صاحب الأضواء: (أي: وقلنا له: يا يحيى خذ الكتاب بقوة، أي:

---

(١) تفسير مجاهد ٣٨٤/١، وانظر: تفسير الطبري ٥٤/١٦-٥٥.
(٢) تفسير الطبري ٥٥/١٦.
(٣) تفسير ابن عطية ٤٣٦/٩، وانظر: التسهيل ٣/٣.
(٤) تفسير السعدي ١٩٤/٣.

خذ التوراة بقوة، أي: بجد واجتهاد، وذلك بتفهم المعنى أولا، حتى يفهمه على الوجه الصحيح، ثم يعمل به من جميع الجهات، فيعتقد عقائده، ويحل حلاله، ويحرم حرامه، ويتأدب بآدابه، ويتعظ بمواعظه، إلى غير ذلك من جهات العمل به).(١)

وفي الآية الجليلة وصف لنبي الله يحيى عليه السلام، بأن الله جل وعلا وهبه الحكم في صغره صبيا، لم يبلغ بعد مبلغ الرجال، لكنه يفهم الخطاب: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

ولفظ الحكم هنا يشمل العلم، والعمل.

قال ابن كثير: (أي: الفهم والعلم، والجد والعزم، والإقبال على الخير، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه).(٢)

ويقول صاحب الأضواء: (للعلماء في المراد بالحكم أقوال متقاربة، مرجعها إلى شيء واحد، وهو أن الله أعطاه الفهم في الكتاب، أي: إدراك ما فيه، والعمل به).

وبعد أن عرض عددا من أقوال أهل التفسير قال: (الذي يظهر لي أن الحكم هو العلم النافع والعمل به، وذلك بفهم الكتاب السماوي فهما صحيحا، والعمل به حقا، فإن هذا يشمل جميع أقوال العلماء في الآية

---

(١) أضواء البيان ٢٢٧/٤.
(٢) تفسير ابن كثير ١١٣/٣.

الكريمة، وأصل معنى الحكم: المنع، والعلم النافع والعمل به يمنع الأقوال والأفعال من الخلل والفساد والنقصان).(١)

وما ورد هنا من الأمر بالعزيمة والجد، وبالحرص والاجتهاد، في قبول آيات الله والاستجابة لها، وبالتمسك بكتاب الله: تلاوة وتدبرا، وتذكرا وطاعة، تكرر في أكثر من نص قرآني ضمن خبر موسى عليه السلام وبني إسرائيل.

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ﴾. [الأعراف: ١٤٥].

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾. [الأعراف: ١٧١].

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ﴾. [البقرة: ٩٣].

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾. [البقرة: ٦٣].

هذا الخطاب الرباني يدعو إلى العناية الجادة بفهم كلام الله تعالى وامتثال مضمونه.

قال القرطبي عقب بيانه المعنى: (قلت: هذا هو المقصود من الكتب: العمل بمقتضاها، لا تلاوتها باللسان وترتيلها)، ثم قال: (فما لزم من قبلنا

(١) أضواء البيان ٤/٢٢٨، وانظر: زاد المسير ٥/١٤٩.

وأخذ عليهم لازم لنا وواجب علينا).(١)

ويتكرر التحذير من الإعراض عن القرآن، وترك العمل بهداه:

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴾. [طه: ٩٩ . ١٠١].

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾. [طه: ١٢٣ . ١٢٦].

والذكر في الآية القرآن (٢)، توعد الله جل شأنه من تولى عن هذا الكتاب العزيز: فلم يؤمن به وجفاه، وتناساه: فلم يعمل به وجانب هداه، بتحمل سوء العاقبة يوم القيامة، ومن ذلك أن يحشر في الآخرة أعمى(٣)، كما توعده جل شأنه بالمعيشة الضنك، أي: العيش الضيق.(٤)

(١) تفسير القرطبي ١/٢٩٧، وانظر: تفسير المنار ١/٣٤١.

(٢) انظر: تفسير البغوي ٣/٢٣٥، تفسير النسفي ٢/٣٨٤، تفسير القاسمي ١١/٢٠١ . ٢٠٢، تفسير السعدي ٣/٢٥٨، مدارج السالكين ٢/٤٠٥، الوابل الصيب ص ٩٨.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١٦/٢٢٩، تفسير ابن عطية ١٠/١٠٨، تفسير ابن كثير ٣/١٦٩، مفتاح دار السعادة ١/٥٧ . ٥٨.

(٤) انظر: معاني القرآن للزجاج ٣/٣٧٨، غريب القرآن ص ٢٥٢، تفسير غريب القرآن ص ٢٨٣، تفسير الطبري ١٦/٢٢٥، المفردات ص ٣٠٣.

ولأهل التفسير في المراد بهذا الوصف عبارات متنوعة، تعود إلى ثلاثة أقوال: الضيق في الحياة الدنيا، أو عذاب القبر، أو عذاب جهنم، وهي أقوال يمكن الجمع بينها في تفسير الآية الكريمة، فيكون هذا الوعيد - والعياذ بالله تعالى - شاملا للحياة الدنيوية والبرزخية والأخروية.(١)

ومما يدخل في المعيشة الضنك: ضيق القلب ونكده واضطرابه.

قال ابن كثير: (﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة).(٢)

فإذا سلم المؤمن من ذلك الإعراض، واتسعت دائرة اتباعه لآيات الكتاب، قوي الإيمان في قلبه، وازداد اهتداؤه هدى، وأوتي نعمة الاعتياد للتقوى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾. [الأنفال: ٢].

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾. [التوبة: ١٢٤ . ١٢٥].

---

(١) انظر: تفسير الثعالبي ٤٢/٣، مفتاح دار السعادة ٥٦/١، الوابل الصيب ص ٩٨ . ٩٩، تيسير اللطيف المنان ص ٣٠٧، أضواء البيان ٥٤٧/٤ . ٥٤٨.

(٢) تفسير ابن كثير ١٦٨/٣ (مع اختصار يسير).

وذلك باعتبار أن القرآن يشتمل على خبر أو طلب، فإذا صدق المؤمن الخبر، ازداد بهذا التصديق يقينا وإيمانا، وإذا قابل الدعوة بالإجابة، والأمر بالامتثال، والطلب بالموافقة والقبول، وبالعزم على الانقياد والتنفيذ، عن محبة وخوف ورجاء، كان ذلك أيضا سببا في زيادة الاهتداء، ونماء الإيمان، وتعاظم اليقين.

وبالمقابل، فإن ضد ذلك بضده أيضا.

عن قتادة قال: (ما جالس أحد القرآن، إلا فارقه بزيادة أو نقصان)، ثم قرأ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾. [الإسراء: ٨٢] (١).

إن استجابة القارئ لدعوة القرآن، والسنة الشريفة مشمولة بها، هي التي تحدد. بعد فضل الله. قربه أو بعده من شفاعة القرآن، ومن شهادته له يوم القيامة، ومن قيادته إلى رياض الجنة.

ذلك ما يقرره الحديث والأثر.

يقول رسول الله ﷺ: (والقرآن حجة لك أو عليك).(٢)

قال ابن دقيق: (معناه ظاهر، أي: تنتفع به إن تلوته وعملت به، وإلا

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٤، سنن الدارمي ٧١٣/٢، وهو مروي أيضا عن الحسن البصري وأويس القرني. الدر المنثور ٦٠٥/٤، ٣٣٠/٥، وانظر: إغاثة اللهفان ٨٩٦/٢.

(٢) جزء من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ، رواه مسلم في كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء ٢٠٣/١.

فهو حجة عليك).[١]

وعن النواس بن سمعان ﵁ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (يؤتى بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران) وفيه: أنها (تحاجان عن صاحبهما).[٢]

فقد تضمن هذا الحديث وصفا لأهل القرآن، الذين ينالون شفاعته في الآخرة، بأنهم الذين كانوا يعملون به في الدنيا، وذلك يدل على أن شفاعة الكتاب العزيز لقارئه، مشروطة بالاتباع والعمل.

ويدل على ذلك أيضا حديث أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: (أتيت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، كلما قرضت وفت، فقلت: يا جبريل، من هؤلاء، قال: خطباء من أمتك، الذين يقولون ولا يفعلون، ويقرأون كتاب الله ولا يعملون).[٣]

وعن أبي الأسود قال: بعث أبو موسى الأشعري إلى قراء أهل البصرة، فدخل عليه ثلاث مئة رجل قد قرأوا القرآن، فقال: (أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم، فاتلوه، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم، كما قست قلوب من كان قبلكم، وإنا كنا نقرأ سورة، كنا نشبهها في الطول والشدة ببراءة، فأنسيتها، غير أني حفظت منها: لو كان لابن آدم واديان من مال، لابتغى واديا ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، وكنا نقرأ سورة، كنا

---

(١) شرح الأربعين النووية ص ١٦١، وانظر: التذكار ص٥٤.

(٢) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن ١/٥٥٤.

(٣) رواه الخطيب في اقتضاء العلم العمل ص ٧٢.٧٣، وحسن الألباني إسناده.

نشبهها بإحدى المسبحات، فأنسيتها، غير أني حفظت منها: يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة).[١]

ولعله ﵁ يشير بقوله: (ولا يطولن عليكم الأمد..) إلى مضمون قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾. [الحديد: ١٦].

والأمد: الزمان، والكتاب: التوراة والإنجيل، والذين أوتوه هم اليهود والنصارى، والمراد تباعد العهد بينهم وبين أنبيائهم عليهم السلام.[٢]

والمعنى أنهم بسبب طول الأمد، أصابتهم الغفلة عما جاءهم من وحي ربهم جل وعلا، وزال الخشوع عن قلوبهم، وغلب عليها الجفاء، فأصبحت قاسية لا تلين للذكر، ولا تستجيب للهدى، ولا ترق للطاعة والخير.

يقول ابن كثير: (نهى الله تعالى المؤمنين، أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، واشتروا به ثمنا قليلا، ونبذوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة، وقلدوا الرجال في دين الله

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثا ١/٧٢٦.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٢٧/٢٢٨ . ٢٢٩، تفسير السمعاني ٥/٣٧٢، تفسير البغوي ٤/٢٩٧، تفسير ابن عطية ٥/٢٦٤.

واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد).(١)

ومما ورد أيضا عن أبي موسى ﷺ في وعظه القراء، أنه عظم القرآن، ثم قال: (إن هذا القرآن كائن لكم أجرا، وكائن عليكم وزرا، فاتبعوا القرآن، ولا يتبعنكم القرآن، فإنه من اتبع القرآن: هبط به على رياض الجنة، ومن تبعه القرآن: زج في قفاه، فقذفه في النار).(٢)

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: (القرآن شافع مشفع، وما حل مصدق، فمن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلف ظهره قاده إلى النار).(٣)

وعنه ﷺ أيضا قال: (يجيء القرآن يوم القيامة: فيشفع لصاحبه فيكون له قائدا إلى الجنة، أو يشهد عليه ويكون سائقا به إلى النار).(٤)

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٣١٠.

(٢) التهذيب الموضوعي لحلية الأولياء ص ٦٢١، وانظر: فضائل القرآن لأبي عبيد ص ٢٠، سنن الدارمي ٢/٧١٠، مصنف ابن أبي شيبة ١٥/٤٦٥، شعب الإيمان ٤/١٩٣، صفة الصفوة ١/٥٥٩.

قال في المصباح المنير ص ١٤٧: (زججت الرجل زجا: طعنته بالزج)، (والزج بالضم: الحديدة التي في أسفل الرمح).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٥/٤٧٨، وانظر: فضائل القرآن لأبي عبيد ص ٢١، الجامع الصغير: فيض القدير ٤/٥٣٥، تحفة الذاكرين ص ٢٦١، الصحيح في فضائل القرآن ص ١٠٧.

ومعنى (شافع مشفع): أي: يطلب الشفاعة لصاحبه وتعطى له الشفاعة، ومعنى (ماحل مصدق) أي: خصم مجادل مصدق فيما يقول. انظر: النهاية في غريب الحديث ٤/٣٠٣، تنبيه الغافلين ٢/٤٥٧، والمقصود أن القرآن مقبول الشفاعة لصاحبه القارئ له الممتثل لأوامره، وهو في المقابل أيضا مصدق في حكمه على المسيء المجافي لتعاليمه.

(٤) سنن الدارمي ٢/٧٠٩، وانظر: مصنف ابن أبي شيبة ١٥/٤٧٨، جامع العلوم والحكم ٢/٢٧.

يقول القرطبي واعظا حملة القرآن التالين له: (.. فما أحق من علم كتاب الله، أن يزدجر بنواهيه، ويتذكر ما شرح له فيه، ويخشى الله ويتقيه، ويراقبه ويستحييه، ألا وإن الحجة على من علمه فأغفله، أوكد منها على من قصر عنه وجهله، ومن أوتي علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيه فلم يرتدع، وارتكب من المآثم قبيحا، ومن الجرائم فضوحا، كان القرآن حجة عليه وخصما لديه).(١)

هذا الاتصال الوثيق بين القراءة والعمل، أشار إليه أيضا الحديث الشريف: (مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة..).(٢)

فقد ثبت في إحدى روايات الحديث قوله ﷺ: (المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة، طعمها طيب وريحها طيب).(٣)، بزيادة لفظ: (ويعمل به).

قال ابن حجر: (وهي زيادة مفسرة للمراد، وأن التمثيل وقع بالذي يقرأ القرآن ولا يخالف ما اشتمل عليه من أمر ونهي، لا مطلق التلاوة).(٤)

ومن ثم استدل ابن حجر بالحديث، على أن المقصود من تلاوة القرآن

---

(١) تفسير القرطبي ١/٥ (مختصرا)، وانظر: ١/١٦. ١٨، التذكار ص ٥٤، أخلاق العلماء ص ٥٥. ٥٨.

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب فضل القرآن ٤/١٩١٧، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة حافظ القرآن ١/٥٤٩.

(٣) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب إثم من راءى بقراءة القرآن ٤/١٩٢٨.

(٤) فتح الباري ١٩/٧٩.

العمل بما دل عليه.[١]

إن صاحب القرآن، القائم بحقه، الجامع بين قراءته واتباعه، يستحق - بلا ريب - أن يغبط، لما يرجى له من السمو في المرتبة والفضل.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار).[٢]

قال ابن حجر: (والمراد بالقيام به: العمل به مطلقا، أعم من تلاوته داخل الصلاة أو خارجها، ومن تعليمه، والحكم والفتوى بمقتضاه).[٣]

والمقصود أن مفهوم القيام بالقرآن يشمل قراءة ألفاظه، كما يشمل اتباع منهاجه.

ولذا أوجز ابن حجر المعنى في موضع آخر فقال: (المراد بالقيام به: العمل به: تلاوة، وطاعة).[٤]

ويؤيده ما تضمنه حديث يزيد بن الأخنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (لا تنافس بينكم إلا في اثنتين، رجل أعطاه الله عز وجل القرآن، فهو يقوم به آناء

---

(١) انظر: فتح الباري ١٩/٨٠.

(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (رجل آتاه الله القرآن..) ٦/٢٧٣٧، ومسلم. واللفظ له. في كتاب صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن.. ١/٥٥٨.

(٣) فتح الباري ١/٢٦٢.

(٤) فتح الباري ١٩/٨٨.

الليل وآناء النهار، ويتبع ما فيه).[١]

وتلك هي نصيحة المؤمن للقرآن: أن يجمع بين قراءته وترتيله، وتعلمه وفهمه، واتباعه والعمل به.

عن تميم الداري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: (الدين النصيحة)، قلنا: لمن؟ قال: (لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم).[٢]

قال ابن حجر: (والنصيحة لكتاب الله: تعلمه، وتعليمه، وإقامة حروفه في التلاوة، وتحريرها في الكتابة، وتفهم معانيه، وحفظ حدوده، والعمل بما فيه، وذب تحريف المبطلين عنه).[٣]

وقال ابن الصلاح: (والنصيحة لكتابه: الإيمان به، وتعظيمه وتنزيهه، وتلاوته حق تلاوته، والوقوف مع أوامره ونواهيه، وتفهم علومه وأمثاله، وتدبر آياته، والدعاء إليه، وذب تحريف الغالين وطعن الملحدين عنه).[٤]

وتلك هي أيضا معالم الاستجابة لوصية رسولنا ﷺ بهذا الكتاب العظيم.

عن أبي موسى الغافقي رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كان آخر ما عهد

---

(١) رواه أحمد في المسند: الفتح الرباني ١٨/١٠، قال البنا في بلوغ الأماني: (وسنده حسن، ولم أقف عليه في غير المسند، ويعضده الحديث الذي قبله). وانظر: فتح الباري ١/٢٦٢.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة ١/٧٤.

(٣) فتح الباري ١/٢٢٤، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٢/٣٨، التبيان ص ١٥٦.

(٤) جامع العلوم والحكم ١/٢٢٢. ٢٢٣.

إلينا أن قال: (عليكم بكتاب الله).[١]

وعن طلحة قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى ﷺ: آوصى النبي ﷺ؟ فقال: لا، فقلت: كيف كُتب على الناس الوصية، أُمروا بها ولم يوص؟ قال: أوصى بكتاب الله.[٢]

والمقصود عظيم الاعتناء به: قراءة وتفهما، تعلما وتعليما، عملا وامتثالا، حماية وتعظيما، انتصارا له ودعوة إلى سبيله ومنهاجه.[٣]

وهو توجيه رسولنا ﷺ لحذيفة ﷺ، كما تضمنه حديثه عن الفتن، وسؤال حذيفة: هل بعد الخير من شر، فقال نبي الله ﷺ: (يا حذيفة، تعلم كتاب الله، واتبع ما فيه) ثلاث مرات.[٤]

أما مجرد القراءة فهي مما يمكن أن يشترك فيه المؤمن والمنافق، والمخلص والمرائي، والتقي والفاجر.

وهو ما أشار إليه الإمام مالك بقوله: (قد يقرأ القرآن من لا خير فيه).[٥]

---

(١) رواه أحمد في المسند: الفتح الرباني ١/١٨٠ قال البنا: (سنده جيد)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/٣٦٦: (رواه أحمد والبزار والطبراني ورجاله ثقات)، ورواه أيضا الحاكم في المستدرك ١/١٩٦ وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب الوصية بكتاب الله عزوجل ٤/١٩١٨.

(٣) انظر: فتح الباري ١٩/٨١.

(٤) رواه أحمد في المسند ٥/٣٨٦، وأبو داود في كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها ٤/٤٤٧، والنسائي في الفضائل ص ١٠٠، ١٠١، والبيهقي في شعب الإيمان ٤/١٢١، والحاكم في المستدرك ٤/٤٧٨ وصححه، ووافقه الذهبي، وأصل الحديث في صحيح البخاري ٣/١٣١٩، وصحيح مسلم ٢/١٤٧٥.

(٥) التذكار ص ٤٣.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: (.. وإن من شر الناس رجلا فاجرا، يقرأ كتاب الله، لا يرعوي إلى شيء منه).[١]

والمعنى: صاحب فجور وإثم وعصيان، يقرأ من آيات القرآن لفظا، لكنه لا يهتدي به واقعا وفعلا، فلا ينزجر بشيء من زواجره، ولا يتذكر بمواعظه، ولا يتأثر بوعده ووعيده، ولا يقف عند نواهيه وحدوده.

فمراد الحديث تقرير أن الغاية المقصودة من قراءة كتاب الله، هي العمل به والقيام بمقتضاه.

ولذا قال أيوب السختياني: (لا خبيث أخبث من قارئ فاجر).[٢]

روى البخاري عن سمرة بن جندب ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: (إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فيثلغ رأسه، فيتدهده الحجر ها هنا، فيتبع الحجر فيأخذه، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل به مرة الأولى، قال: قلت لهما: سبحان الله ما هذان، قال: قالا لي: انطلق)،

---

(١) رواه النسائي في كتاب الجهاد، باب فضل من عمل في سبيل الله على قدمه ٦/١٢، وأحمد في المسند: الفتح الرباني ١٨/٢٧، والحاكم في المستدرك ٢/٧٧ وصححه، ووافقه الذهبي، وانظر: تفسير القرطبي ١/٢٩٧، التذكار ص ٤٣، فيض القدير ٣/١٠٢ .١٠٣، حاشية السندي على النسائي ٦/١٢.

(٢) اقتضاء العلم العمل ص ٧٥.

وفي آخر الحديث: (قال: قلت لهما: فإني قد رأيت منذ الليلة عجبا،فما هذا الذي رأيت، قال: قالا لي: أما إنا سنخبرك، أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر، فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة).[١]

وفي رواية أخرى للبخاري: (فرجل علمه الله القرآن، فنام عنه بالليل، ولم يعمل فيه بالنهار).[٢]

أما المنافق القارئ فقد شبهه رسول الله ﷺ بالريحانة، ظاهرها من حيث الرائحة طيب، لكن حقيقتها من حيث الذوق تغمره المرارة.

فمن حديث أبي موسى الأشعري ﷺ يقول ﷺ: (ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر).[٣]

هذا الحديث الشريف يفيد أن الرجل قد يكون (حافظا لحروف القرآن وسوره، ولا يكون مؤمنا، بل يكون منافقا، فالمؤمن الذي لا يحفظ حروفه وسوره خير منه، وإن كان ذلك المنافق ينتفع به الغير، كما ينتفع بالريحان)، (ولهذا كان الإيمان بدون قراءة القرآن ينفع صاحبه ويدخل به الجنة، والقرآن بلا إيمان لا ينفع في الآخرة، بل صاحبه منافق).[٤]

---

(١) رواه البخاري في كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح ٢٥٨٣/٦. ٢٥٨٥.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين ٤٦٦/١.

(٣) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب إثم من راءى بقراءة القرآن ١٩٢٨/٤، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة حافظ القرآن ٥٤٩/١.

(٤) مجموع الفتاوى ٣٩٨/١١، ٧١/١٥.

وفي رواية أخرى للحديث: (ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن).[١]

وقد عنون البخاري في صحيحه لأحد أبواب كتاب التوحيد فقال: (باب قراءة الفاجر والمنافق وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم).[٢]

قال ابن بطال: (ومعنى هذا الباب: أن قراءة الفاجر والمنافق لا ترتفع إلى الله، ولا تزكو عنده، وإنما يزكو عنده ما أريد به وجهه، وكان عن نية التقرب إليه، وشبهه بالريحانة، حيث لم ينتفع ببركة القرآن، ولم يفز بحلاوة أجره، فلم يجاوز الطيب موضع الصوت وهو الحلق، ولا اتصل بالقلب).[٣]

وقد ضمن البخاري هذا الباب الحديث الآنف الذكر، كما ضمنه الحديث في وصف الخوارج، وفيه: (ويقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم[٤]، يمرقون من الدين..).

وفي إحدى روايات مسلم: (يتلون كتاب الله رطبا لا يجاوز حناجرهم).[٥]

---

(١) صحيح البخاري: كتاب التوحيد، باب قراءة الفاجر والمنافق ٢٧٤٨/٦، صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة حافظ القرآن ٥٤٩/١.

(٢) صحيح البخاري ٢٧٤٨/٦.

(٣) فتح الباري ٥٣٦/١٣.

(٤) التراقي: جمع ترقوة، وهي العظم الذي بين النحر والعاتق من الجانبين. انظر: النهاية في غريب الحديث ١٨٧/١.

(٥) صحيح مسلم: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفتهم ٧٤٢/١.

قال ابن حجر: (قيل: المراد الحذق في التلاوة، أي: يأتون به على أحسن أحواله، وقيل: المراد أنهم يواظبون على تلاوته فلا تزال ألسنتهم رطبة به، وقيل: هو كناية عن حسن الصوت به)، ثم قال: (وأرجحها الثالث)، قال: (والمعنى: أن قراءتهم لا يرفعها الله ولا يقبلها، وقيل: لا يعملون بالقرآن، فلا يثابون على قراءته، فلا يحصل لهم إلا سرده).[١]

وأيضا، فإن تجريد التلاوة عن صفاء النية، في قصد التقرب إلى الله تعالى ونيل رضاه، يحرم القارئ من الحسنة والمثوبة، ويوقعه في السخط والعقوبة، وحينذاك تكون الحجة عليه لا له.

يشهد لذلك حديث أبي هريرة ﷺ، والذي تضمن ثلاثة أصناف، أخبر عنهم رسول الله ﷺ أنهم (أول الناس يقضى يوم القيامة عليه)، كان من هؤلاء: (رجل تعلم العلم، وعلمه، وقرأ القرآن، فأتي به، فعرفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها، قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار).[٢]

ومن أبواب كتاب فضائل القرآن في صحيح البخاري: (باب إثم من

(١) فتح الباري ٢٦/١٢٨.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء ٢/١٥١٤، وانظر: جامع العلوم والحكم ١/٧٧.

راءى بقراءة القرآن، أو تأكل به، أو فجر به. أو فخر به).

ساق فيه البخاري حديث رسول الله ﷺ: (ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة، ريحها طيب، وطعمها مر).[١]

قال ابن كثير: (هو المرائي بتلاوته).[٢]

وفي دائرة التحذير من الانسجام مع هذا التوجه، في الخلف بين عمل القلب وسلوك الظاهر، يرد حديث عبد الله بن عمرو ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أكثر منافقي أمتي قراؤها).[٣]

فقد ذكر بعض أهل العلم[٤] أن المراد هنا نفاق العمل، مما يتعارض فيه الباطن مع الظاهر، والفعل مع القول، والسلوك مع اللفظ، كاعتياد الرياء

(١) صحيح البخاري ٤/١٩٢٧.

(٢) فضائل القرآن ص ١٦٨.

(٣) رواه أحمد في المسند: الفتح الرباني ١٨/٢٨، والبغوي في شرح السنة ١/٧٥ قال المحقق الأرنؤوط: (حديث صحيح)، وابن المبارك في الزهد ص ٧٤، والطبراني كما في مجمع الزوائد ٦/٣٤٣، قال الهيثمي: (رواه أحمد، والطبراني ورجاله ثقات، وكذلك رجال أحد إسنادي أحمد ثقات)، وحسنه البنا في بلوغ الأماني ١٨/٢٨، وصححه الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة ص ٤٤٤.

(٤) انظر: فيض القدير ٢/٨١، بلوغ الأماني ١٨/٢٨.

قال البغوي في شرح السنة ١/٧٦، ٧٧ في بيان أحد نوعي النفاق: (والثاني: ترك المحافظة على أمور الدين سرا ومراعاتها علنا، فهذا يسمى منافقا، ولكنه نفاق دون نفاق)، ثم قال: (وقوله: (أكثر منافقي أمتي قراؤها) فهو أن يعتاد ترك الإخلاص في العمل، كما جاء: (التاجر فاجر) [أحمد والترمذي وغيرهما]، وأراد: إذا اعتاد التاجر الكذب في البيع والشراء، لا أن نفس التجارة فجور، بل هي أمر مأذون فيه مباح في الشرع).

وحب الظهور والشهرة، وكاستمراء التناقض بين قراءة الآيات وتطبيق مقتضاها ولازمها، وكاتخاذ القرآن مطية لتحقيق مصالح دنيوية محضة.

وقد حذر رسول الله ﷺ أصحابه، من هذا القصد المادي المجرد في قراءة القرآن وتعلمه، داعيا إياهم إلى إخلاص النية، والتعلق بالثواب الأخروي.

عن جابر بن عبدالله ﷺ قال: دخل النبي ﷺ المسجد، فإذا فيه قوم يقرأون القرآن، قال: اقرأوا القرآن، وابتغوا به الله ﷻ، من قبل أن يأتي قوم يقيمونه إقامة القدح، يتعجلونه، ولا يتأجلونه).(١)

ومن حديث سهل بن سعد ﷺ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوما ونحن نقترئ، فقال: (الحمد لله، كتاب الله واحد، وفيكم الأحمر وفيكم الأبيض وفيكم الأسود، اقرأوه قبل أن يقرأه أقوام يقيمونه كما يقوم السهم، يتعجل أجره ولا يتأجله).(٢)

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب ما يجزئ الأمي والأعجمي من القراءة ١/٥٢٠، وأحمد . واللفظ له .في المسند: الفتح الرباني ١٨/١٣، والبيهقي في شعب الإيمان ٥/٨٩ قال المحقق: (إسناده حسن)، وكذلك قال البنا في بلوغ الأماني ١٨/١٣، وانظر: الصحيح في فضائل القرآن ص ٩٠ . ٩١.

قال في عون المعبود ٢/٢٠٥ . ٢٠٦: ((يقيمونه) أي: يصلحون ألفاظه وكلماته، ويتكلفون في مراعاة مخارجه وصفاته (كما يقام القدح) أي: يبالغون في عمل القراءة كمال المبالغة، لأجل الرياء والسمعة والمباهاة والشهرة).

والقدح: بكسر القاف وسكون الدال، وهو السهم الذي يرمى به عن القوس، يسمى بذلك بعد العناية باعتداله وتقويمه. انظر: النهاية في غريب الحديث ٤/٢٠.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب ما يجزئ الأمي والأعجمي من القراءة ١/٥٢٠ . ٥٢١،

=

والمقصود بتعجل الأجر: النظر إلى الغاية الدنيوية والجزاء القريب، وإيثار ذلك على الثواب الآجل في الآخرة، فلا يريد سوى تحصيل المتاع المادي العاجل: من ربح وعطاء مالي، أو علو في موقع وظيفي، أو ثناء ومديح شخصي، أو جاه وامتياز اجتماعي.

قال النووي: (معناه: يتعجلون أجره: إما بمال، وإما بسمعة، ونحوهما).(١)

وقد أثنى الله جل شأنه على القراء العاملين، فوصفهم بإخلاص النية لله تبارك وتعالى، وبرجاء الآخرة ونعيمها، وبإيثار الآجلة وثوابها، وبتوافق السلوك والفعل مع القراءة والقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ

=

وأحمد: الفتح الرباني ١٨/٩، قال البنا في بلوغ الأماني: (في إسناده ابن لهيعة، تكلم فيه بعضهم، وحسن حديثه الحافظ الهيثمي إذا صرح بالتحديث، وقد صرح به في هذا الحديث، وله شاهد من حديث جابر)، ورواه أيضا البيهقي في شعب الإيمان ٥/٨٩ . ٩١، وانظر: الصحيح في فضائل القرآن ص ٩١.

قال المناوي في معنى (يتعجلونه ولا يتأجلونه): (أي: يطلبون بقراءته العاجلة من عرض الدنيا والرفعة فيها، ولا يريدون به الآجلة وهو جزاء الآخرة، فمن أراد بها الدنيا فهو متعجل، وإن ترسل في قراءته، ومن أراد به الآخرة فهو متأجل، وإن أسرع في قراءته بعد إعطاء الحروف حقها). فيض القدير ٢/٦٦، وانظر: عون المعبود ٢/٢٠٦.

وقال البنا في (يقيمونه كما يقوم السهم): (والمراد أنهم يبالغون في تحسينه بتكلف وتعسف، لترغيب الناس فيهم، وإن خرجوا بذلك عن حد التجويد). بلوغ الأماني ١٨/٩، وانظر: ١٨/١٣.

(١) التبيان ص ٤٩، وانظر: ص ٢٨.

كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٩ . ٣٠].

وفي المقابل ذم القرآن أحبار بني إسرائيل، الذين ناقضوا أنفسهم، وخالفوا علمهم، فكفروا بنبوة محمد ﷺ وقد بشر به كتابهم المنزل على نبي الله موسى عليه السلام.

يقول الله سبحانه:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.[البقرة: ١٤٦].

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. [البقرة: ١٠١].

لقد شبه القرآن أولئك المكذبين برسول الله ﷺ من علماء يهود، المناكفين في ذلك للتوراة، المخالفين لنصوصها الناطقة بنبوته، الشاهدة برسالته، الداعية إلى الإيمان به واتباعه ﷺ، بالحمار يحمل كتب العلم وأسفار الهداية، وهو جاهل بقيمتها، غافل عن أثرها، لا يعي ما تتضمنه من الخير، ولا ينتفع بما تشتمل عليه من الحق: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. [الجمعة: ٥].

و ذمُّهم في الآية بهذا التشبيه يتأسس على أنهم (﴿ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾ أي: كلفوا القيام بها والعمل بما فيها ﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ لم يعملوا بما فيها

ولم يؤدوا حقها).[1]

قال ابن كثير: (مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارا، أي: كمثل الحمار إذا حمل كتبا لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملا حسيا ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه: حفظوه لفظا، ولم يتفهموه، ولا عملوا بمقتضاه، بل أولوه، وحرفوه، وبدلوه، فهم أسوأ حالا من الحمير، لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها).[2]

فوجه الشبه .كما ذكر صاحب الأضواء .(عدم الانتفاع بما تحملوه من التوراة، وهم يعلمون ما فيها من رسالة محمد ﷺ).[3]

والذم متجه بعد ذلك إلى كل من اقتفى أثرهم، وسلك سبيلهم، في التناقض والانفصال، بين القراءة والامتثال.

يقول ابن القيم، وهو يبرز صورة المثل في الآية الكريمة: (قاس من حمله سبحانه كتابه ليؤمن به ويتدبره، ويعمل به ويدعو إليه، ثم خالف ذلك ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقرأه بغير تدبر ولا تفهم، ولا اتباع له ولا تحكيم، ولا عمل بموجبه: كحمار على ظهره زاملة أسفار، لا يدري ما فيها، فحظه منها حملها على ظهره ليس إلا، فحظ هذا من كتاب الله، كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره.

(١) تفسير البغوي ٤/٣٤٠، وانظر: تفسير ابن عطية ١٤/٤٤٢. ٤٤٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٣٦٤.

(٣) أضواء البيان ٨/١٩٥.

فهذا المثل، وإن كان قد ضرب لليهود، فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به، ولم يؤد حقه، ولم يرعه حق رعايته).[١]

وفي هذا المعنى أيضا يقول الله جل وعلا: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾. [البقرة: ٤٤].

والخطاب في هذه الآية لليهود أيضا، والمقصود بالكتاب التوراة.[٢]

قال البغوي في تفسير ﴿ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾: أي: (تقرأون التوراة، فيها نعته وصفته ﷺ).[٣]

ثم يعم التوبيخ كذلك من شابههم، كما قرر القرطبي وغيره.[٤]

وآيات الكتاب العزيز تكرر التحذير، من هذا المصير إلى الانقياد للهوى، ومفارقة الهدى، وإلى ترك العمل بالآيات بعد العلم بها ومعرفتها، والنكوص عنها بعد وضوحها واستبانتها.

يقول الله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ﴾. [الأعراف: ١٦٩].

قال القرطبي: (قال المفسرون: هم اليهود، ورثوا كتاب الله، فقرأوه

---

(١) التفسير القيم ص ٤٩٣.

(٢) هذا القول عزاه ابن الجوزي في زاد المسير ١/٦٢ إلى جمهور المفسرين، والقول الثاني: أن المقصود بالكتاب القرآن، وعليه فلا يكون الخطاب في الآية لليهود.

(٣) تفسير البغوي ١/٦٨.

(٤) انظر: تفسير القرطبي ١/٢٥١، تفسير السعدي ١/٥٧.

وعلموه، وخالفوا حكمه، وأتوا محارمه، مع دراستهم له).[١]

والمراد بالكتاب التوراة، والإشارة في ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ ﴾ إلى المتاع الدنيوي المحرم.

ولذا نبهت الآيات في سياقها على أن تقوى الله، والاستمساك بكتاب الله: قراءة واتباعا، هو الأوجب والأولى، باعتباره السبيل إلى متاع الآخرة وثوابها الجزيل: ﴿ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾. [الأعراف: ١٦٩- ١٧٠].

وتمسك اليهود بالكتاب، وأخذهم بما فيه[٢]، سيؤول بهم حتما إلى الإيمان برسالة محمد ﷺ.

إن العظة المستفادة هنا، هي ضرورة التوافق والانسجام، بين دراسة كلام الله: تلاوة وفهما، وضبط السلوك به، وأن التناقض بين هذا وذاك يستوجب التقبيح والذم، وهي عظة تعم أهل الإسلام، في علاقتهم بالقرآن.

ويقول الله سبحانه: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ

---

(١) تفسير القرطبي ٧/١٩٨، وانظر: تفسير الطبري ٩/١٠٥ .١٠٨، تفسير البغوي ٢/٢١٠ . ٢١١، الفوائد ص ١٢٧، في ظلال القرآن ٣/١٣٨٧ .١٣٨٨.

(٢) انظر: معاني القرآن للفراء ١/٣٩٩.

عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦].

تتضمن هذه الآيات[1] توجيها لنبينا ﷺ، أن يقص على الناس خبر رجل، آتاه الله من آياته وحججه وأدلته، حتى صار دارسا لها، عالما بها، متمكنا منها، فانحرف عن طاعة ربه سبحانه، وتجرد من آياته التي عرفها، وتعمد الخروج عنها متبرئا منها راغبا عن هداها، فصار تابعا للشيطان في خطواته، مستجيبا له في تزيينه وإغرائه، فهلك بفساده وضلاله وعصيانه.

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٢٣/٩. ١٣٠.
وقد ذكر المفسرون أقوالا في تعيين المقصود بالذي آتاه الله آياته، وفي المراد بالآيات. انظر: زاد المسير ١٩٤/٣. ١٩٥.
ولاضطراب الأقوال قال أبو حيان في البحر المحيط ٤٢٢/٤ .٤٢٣: (والأولى في مثل هذا إذا ورد عن المفسرين، أن تحمل أقاويلهم على التمثيل، لا على الحصر في معين، فإنه يؤدي إلى الاضطراب والتناقض)، وبنحو ذلك قال ابن عثيمين. انظر: شرح أصول في التفسير ص ٩٢.
والمشهور عند أهل التفسير أنه (رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل) اسمه بلعام، وهو مروي عن ابن مسعود ﷺ وغيره. انظر: تفسير الصنعاني ٢٤٣/٢، تفسير ابن أبي حاتم ١٦١٦/٥، مجمع الزوائد ٩٧/٧، تفسير ابن كثير ٢٦٥/٢، الدر المنثور ٦٠٨/٣.
ونقل المفسرون في شأن هذا الرجل جملة من الروايات، مما قد يتعذر الوثوق بصحتها .كما قال ابن عطية وغيره. وبعضها مردود لمخالفته الأصول. انظر: تفسير ابن عطية ١٤١/٦، ١٤٣، تفسير ابن كثير ٢٦٥/٢، تفسير القاسمي ٣٠٢/٨ .٣٠٣، تفسير المنار ٤٠٥/٩ في ظلال القرآن ١٣٩٦/٣. ١٣٩٩، موسوعة الاسرائيليات ٤١٣/١. ٤١٤.
ولذا قال ابن جرير: (والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره، أمر نبيه ﷺ، أن يتلو على قومه خبر رجل، كان الله آتاه حججه وأدلته) وبعد أن احتمل عددا من الأقوال في تعيين الرجل وفي المراد بالآيات، وبعد أن قرر انتفاء ثبوت ما يوجب الحجة في تحديد ذلك، قال: (فالصواب أن يقال فيه ما قال الله، ويقر بظاهر التنزيل، على ما جاء به الوحي من الله).

ولو شاء الله تبارك وتعالى لرفع منزلته بتوفيقه للعمل بما علم مما توجبه الآيات، ولكنه آثر الدنيا وركن إليها ولازمها، وائتم بهواه في المباعدة عن الهدى والحق، وأعرض عن كتاب الله على دراية وعلم وفساد قصد، وأصر على اختيار الضلال، حتى أصبحت الموعظة وانتفاؤها بالنسبة له سيان، مشابها في ذلك الكلب في أقبح حالاته حين يلهث في الحالين: طورد أو ترك.

وذلك أيضا هو وصف سائر المكذبين الجاحدين لآيات الله، ممن سلك سبيل هذا المنسلخ عن منهج الله، في ترك العمل بما يعلم من مقتضى الآيات، بعد تبينها ووضوحها.

قال القرطبي: (وهذا المثل - في قول كثير من أهل العلم بالتأويل - عام، في كل من أوتي القرآن ولم يعمل به).[1]

عن زياد بن لبيد الأنصاري ﷺ قال: ذكر النبي ﷺ شيئا فقال: (ذاك عند أوان ذهاب العلم) قلت: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن، ونقرئه أبناءنا، ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة، قال: (ثكلتك أمك زياد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أوليس هذه اليهود والنصارى يقرأون التوراة والإنجيل، لا يعملون بشيء مما فيهما).[2]

---

(١) تفسير القرطبي ٢٠٥/٧، وانظر: الفوائد ص ١٢٨. ١٢٩.
(٢) رواه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب ذهاب القرآن والعلم ١٣٤٤/٢، قال في الزوائد: (هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات، إلا أنه منقطع..)، ورواه أحمد بنحوه: الفتح الرباني ١٨٢/١، والحاكم في المستدرك وصححه ١٨٠/١، وانظر: بلوغ الأماني ١٨٢/١ .١٨٣، الصحيح في فضائل القرآن ص ١٤٢.

ومن حديث أبي الدرداء ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال لزياد بن لبيد ﷺ: (هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى، فماذا تغني عنهم).[١]

والمقصود أنهم لا يفيدون منها ولا ينتفعون، باعتبارهم غير عاملين بما تحمله ألفاظها من الحق المنزل من عند الله، فهم أهل جهل وإن كانوا عالمين، ما داموا بمعزل عن الامتثال والتطبيق، ويلحق بهم من يحذو حذوهم من المسلمين، حين يختارون الانفصام بين القراءة والعمل في العلاقة بالقرآن الكريم.

إن هذا الانفصام يجعل من عمل اللسان غير ذي جدوى، حين يتجرد بذاته نطقا بالحروف وتحريكا للألفاظ، فلا يثمر في قلب صاحبه خشية لله جل وعلا وإجلالا، ورجاء ومحبة، ولا يزيده إيمانا وخشوعا، ولا يبعث في جوارحه حركة إلى الحسنة والطاعة.

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (العلم علمان: فعلم في القلب فذاك العلم النافع، وعلم على اللسان فذاك حجة الله على ابن آدم).[٢]

---

(١) رواه الترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في ذهاب العلم ٥/٣١ .٣٢ وقال: (هذا حديث حسن غريب)، والحاكم في المستدرك ١/١٧٩ وصححه، ووافقه الذهبي، والحديث مروي أيضا من حديث عوف بن مالك الأشجعي وغيره ﷺ. انظر: المسند: الفتح الرباني ١/١٨٣، المستدرك ١/١٧٨، مجمع الزوائد ١/٤٧٠ - ٤٧١، صحيح جامع بيان العلم وفضله ص ١٩٧، الصحيح في فضائل القرآن ص ١٤٢ - ١٤٣، وانظر أيضا: تحفة الأحوذي ٧/٦٧.

(٢) أورده المنذري في الترغيب والترهيب ١/١٠٣ وقال: (رواه الحافظ أبوبكر الخطيب في تاريخه بإسناد حسن، ورواه ابن عبد البر النمري في كتاب العلم عن الحسن مرسلا بإسناد صحيح)، =

يقول ابن القيم: (الإيمان له ظاهر وباطن، وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته، فلا ينفع ظاهر لا باطن له، ولا يجزئ باطن لا ظاهر له، إلا إذا تعذر بعجز أو إكراه وخوف هلاك، فتخلف العمل ظاهرا مع عدم المانع، دليل على فساد الباطن وخلوه من الإيمان، ونقصه دليل نقصه، وقوته دليل قوته).[١]

وقد أثنى القرآن على عباد الرحمن في سورة الفرقان بجملة سمات، كان منها قبولهم موعظة القرآن: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴾. [الفرقان: ٧٣].

والمراد[٢] وصفهم بعدم التغافل عن آيات القرآن كمن لا يسمع ولا يرى، بل يستجيبون للتذكير بها، فتتأملها عقولهم، وتخشع لها قلوبهم، وتنقاد لها جوارحهم.

يقول ابن القيم: (ولهذا كان أهل القرآن هم العالمون به، والعاملون بما فيه، وإن لم يحفظوه عن ظهر قلب، وأما من حفظه ولم يفهمه ولم يعمل بما

= وصحح العراقي كذلك الإسنادين في المغني: إحياء علوم الدين ١/٨٣، وانظر: الجامع الصغير: فيض القدير ٤/٣٩٠.

(١) الفوائد ص ١٠٩ (مع اختصار يسير).

(٢) انظر: تفسير غريب القرآن ص ٣١٥.

فيه، فليس من أهله، وإن أقام حروفه إقامة السهم).[١]

والإصرار على الممانعة عن الانقياد، ومجافاة العمل بما توجبه الآيات: هجر للقرآن، والله جل شأنه يقول مخبرا عن شكوى رسولنا ﷺ إلى ربه هجر قومه القرآن: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾. [الفرقان: ٣٠].

وقد ذكر المفسرون[٢] أن المقصود أولا أعداء الإسلام في زمن النبوة، ممن كان يتصف بهذا الوصف في التعامل مع القرآن العظيم: إقصاء وتكذيبا له، أو رفضا لسماع الحق فيه، أو اتهامه بالباطل من الأقاويل.

غير أن الآية بعد ذلك عامة في التخويف من هجر الكتاب العزيز، وهو مفهوم يشمل الانقطاع عن قراءته وتحريك اللسان بترتيل ألفاظه الشريفة، أو التباعد عن تدبر آياته والتأثر بمعانيه الجليلة، كما يشمل كذلك التجافي عن تحكيمه والعمل بمضمون آياته الكريمة.

وهو ما قرره ابن كثير بقوله في تفسير الآية: (يقول تعالى مخبرا عن رسوله ونبيه محمد ﷺ أنه قال: ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾، وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يستمعونه، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ ﴾ الآية، فكانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره حتى لا

(١) زاد المعاد ١/٣٣٨.

(٢) انظر: تفسير ابن عطية ١١/٣٥، البحر المحيط ٦/٤٩٦.

يسمعوه، فهذا من هجرانه، وترك الإيمان به وترك تصديقه من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره. من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره. من هجرانه).[١]

إن الأسوة الحسنة في هذا المقام هو رسولنا ﷺ: المثال العملي للمنهج القرآني.

هذا ما وصفت به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ، في إيجاز يجمع المراد، وذلك حين قال لها سعد بن هشام رضي الله عنه: أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: (ألست تقرأ القرآن)، قال: بلى، قالت: (فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن).[٢]

قال ابن كثير: (ومعنى هذا: أنه عليه الصلاة والسلام، صار امتثال القرآن. أمرا ونهيا. سجية له وخلقا، تطبعه وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه).[٣]

ثم لنا - بعد رسول الله ﷺ - في الأصحاب رضي الله عنهم أسوة وقدوة، فقد أقاموا بنيان علاقتهم بالكتاب العزيز، على الانسجام والوئام بين التعلم والعمل،

(١) تفسير ابن كثير ٣/٣١٧، وانظر: تفسير القرطبي ١٣/٢٠، تفسير أبي السعود ٦/٢١٥، أضواء البيان ٦/٣١٧، تفسير القاسمي ١٢/٢٥٩، الفوائد ص ١٠٤. ١٠٥.

(٢) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل ١/٥١٣.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٤٠٢، وانظر: شرح النووي ٦/٢٦، حاشية السندي على النسائي ٣/٢٠٠.

وأسسوا منهاج اتصالهم به، على التصالح والتوافق بين القراءة والاتباع.

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: (كنا إذا تعلمنا من النبي ﷺ عشر آيات من القرآن، لم نتعلم من العشر التي نزلت بعدها حتى نعلم ما فيه)، قيل لشريك. أحد رواة الحديث.: من العمل؟ قال: نعم.[١]

وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: (حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ، أنهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل[٢]، قالوا: فعلمنا العلم والعمل).[٣]

ذلك أن سبق الإيمان في قلوبهم، وتمكنه في نفوسهم، كان باعثا لهم إلى تلبية نداء القرآن، وقبول أمره، والتزام حكمه، وسلوك سبيله، والاستضاءة بنوره وهداه، وبذلك ازدادوا إيمانا ونورا.

عن جندب بن عبد الله ﷺ قال: (كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن، فازددنا به إيمانا).[٤]

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ١/٧٤٣.٧٤٤ وصححه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في شعب الإيمان ٤/١٢٩.١٣٠.

(٢) (أي: من العلم بأحكامها ومعناها، والعمل بمقتضاها). بلوغ الأماني ١٨/٩، والإشارة بهذه إلى العشر الأولى.

(٣) رواه أحمد في المسند: الفتح الرباني ١٨/٩،وابن أبي شيبة:١٥/٤٣٦، وانظر: تفسير الطبري ١/٣٦، مجموع الفتاوى ٥/١٥٦، ١٣/٣٣١، سير أعلام النبلاء ٢/٢٣٦٤.

(٤) رواه ابن ماجه في المقدمة، باب في الإيمان ١/٢٣، والبيهقي في شعب الإيمان ١/٧٦، وانظر:

=

وذلك باعتبار أن (القرآن يعطي العلم المفصل، فيزيد الإيمان).[١]

فكانوا ﷺ بذلك أهل الإيمان والقرآن، وهي أفضل المنازل.

وعن عبد الله بن عمر ﷺ قال: (لقد عشنا برهة من دهرنا، وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد ﷺ، فيتعلم حلالها وحرامها، وما ينبغي أن يوقف عنده فيها، كما تعلمون أنتم القرآن) ثم قال: (لقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، ما يدري ما أمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه، ينثره نثر الدقل).[٢]

إن هذه الكلمات من ابن عمر ﷺ تحذر من الانفصام بين الظاهر والباطن، ومن التعارض بين النظرية والتطبيق، ومن التصادم بين القول والسلوك، كما تنبه إلى خطورة التناقض بين تلاوة القرآن بمعنى قراءته وترتيله، وتلاوته بمعنى العمل بأحكامه وامتثال تعاليمه.

وكثيرا ما تردد التنبيه إلى هذا الخلل، والتحذير من الخلف بين القول والفعل، والدعوة إلى التوافق بين القراءة والاتباع، في عبارات الصحابة ﷺ،

=

الإيمان لابن منده ١/٣٧٠، اعتقاد أهل السنة ٥/٩٤٦.٩٤٧.

والحزاورة جمع حزور . بفتح الحاء والواو وسكون الزاي، وبفتح الحاء والواو والزاي مع تشديد الواو. وهو الذي قارب البلوغ. انظر: النهاية ١/٣٨٠.

(١) مجموع الفتاوى ٤/٣٨، وانظر: تفسير الطبري ١١/٧٢، نظم الدرر ٣/١٨٤،٤٠٤.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك ١/٩١ وصححه، ووافقه الذهبي، وانظر: مجموع الفتاوى ١٥/١٠٨.

ومن بعدهم من السلف رحمهم الله تعالى.

عن أبي موسى الأشعري ﷺ: أنه جمع القراء، قال: (لا تدخلوا عليَّ إلا من جمع القرآن)، فدخلوا عليه زهاء ثلاث مئة، فوعظهم، وكان مما قال لهم: (أنتم قراء أهل البلد، فلا يطولن عليكم الأمد، فتقسو قلوبكم، كما قست قلوب أهل الكتاب).(١)

ولعله يشير بعبارته إلى الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وعن حذيفة ﷺ قال: (اتقوا الله يا معشر القراء، وخذوا طريق من كان قبلكم، فوالله لئن استقمتم لقد سبقتم سبقا بعيدا، ولئن تركتموه يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيدا).(٢)

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ، وقد سأله رجل أن يوصيه، فقال: (إذا سمعت الله تبارك وتعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه).(٣)

---

(١) التهذيب الموضوعي لحلية الأولياء ص ٦٢١.

(٢) الزهد لابن المبارك ص ١٣، السبعة ص ٤٦. ٤٧، وأصله في صحيح البخاري: كتاب الاعتصام ٦/٢٦٥٦.

والقراء جمع قارئ، يطلق على من اشتهر بحفظ القرآن والتصدي لتعليمه، كما يطلق على الفقيه في دين الله، العالم بأحكام القرآن. انظر: فتح الباري ١٩/٥٥.

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٨، شعب الإيمان للبيهقي ٤/٢٠٩، وانظر في هذا المعنى: إحياء علوم الدين ١/٣٩٩.

وعنه ﷺ أيضا قال: (ليس حفظ القرآن بحفظ الحروف، ولكن إقامة حدوده).(١)

وعن أبي الدرداء ﷺ، وقد أتاه رجل بابنه، قال: يا أبا الدرداء، إن ابني هذا قد جمع القرآن، فقال: (اللهم غفرا، إنما جمع القرآن من سمع له وأطاع).(٢)

وذلك تأكيد منه ﷺ على أن حفظ القرآن نوعان: أحدهما حفظ حروفه واستظهار آياته، وثانيهما حفظ حدوده وتنفيذ أحكامه والعمل بموجبه.

ومع أن الأول مستحب مندوب إليه شرعا، غير أن الثاني هو الأهم، وهو الغاية والمقصد.

ومما أثر عن الشافعي في هذا المسلك قوله: (ليس العلم ما حفظ، العلم ما نفع).(٣)

وعن الحسن البصري: (والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل).(٤)

وعن مالك بن دينار قال: (يا حملة القرآن، ماذا زرع القرآن في قلوبكم،

---

(١) التذكار ص ٤٣.

(٢) فتح الباري ١٩/٦١، الإتقان ٢/٤٦٢.

(٣) تذكرة السامع ص ١٥، ٢١.

(٤) تفسير ابن كثير ٤/٣٣، وانظر: إحياء علوم الدين ١/٣٨٤. ٣٨٥.

فإن القرآن ربيع المؤمن، كما أن الغيث ربيع الأرض،.. أين أصحاب سورة، أين أصحاب سورتين، ماذا عملتم فيهما).[١]

ولذا كان على القارئ للكتاب العزيز، أو الحافظ لسوره وآياته، أو المتدبر في معانيه ومقاصده، أو المتعلم لفقهه وأحكامه، أن يستصحب الغاية من تلاوة القرآن وترتيله، ومن استظهاره وحفظه، ومن تأمله وتفهمه، ومن دراسته وتعلمه، حتى لا تتحول الوسيلة إلى غاية.

عن ابن مسعود ﷺ قال: (أنزل القرآن عليهم ليعملوا به، فاتخذوا دراسته عملا، إن أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته، ما يسقط منه حرفا، وقد أسقط العمل به).[٢]

ومراده ﷺ أن دراسة القرآن ليست هي الهدف النهائي، بحيث تبقى عملا مقصودا لذاته، ولكنها سبيل إلى تأمل وتفهم، يفضي إلى عمل بالمقتضى.

وعن الحسن البصري قال: (إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها بالنهار).[٣]

ومن وصية الآجري[٤] لحملة القرآن قوله: (ينبغي لمن علمه الله، وفضله على غيره ممن لم يحمله كتابه، وواجب أن يكون من أهل القرآن وأهل

(١) التهذيب الموضوعي لحلية الأولياء ص ٦٢٠. ٦٢١.
(٢) إحياء علوم الدين ١/٣٨٥، وانظر: تفسير ابن عطية ١/٢٤.
(٣) التبيان ص ٤٨، وانظر: تفسير ابن عطية ١/٢٣، إحياء علوم الدين ١/٣٨٤. ٣٨٥.
(وينفذونها) بضم الياء وسكون النون وكسر الفاء، (أي:يعملون بما فيها) التبيان ص ١٩١.
(٤) انظر: جمال القراء ١/١١٤. ١٢٠.

الله وخاصته، وممن وعده الله ﷻ بالفضل العظيم، وممن قال الله ﷻ فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾.. فينبغي له أن يجعل القرآن ربيعا لقلبه، يعمر به ما خرب من قلبه، فيتأدب بأدب القرآن، ويتخلق بأخلاق شريفة يتميز بها عن سائر الناس ممن لا يقرأ القرآن).

ومنها أيضا قوله: (فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان كالمرآة يرى بها ما حسن من فعله وما قبح منه، فما حذره مولاه حذره، وما خوفه به من عقابه خافه، وما رغبه فيه مولاه رغب فيه ورجاه، فمن كانت هذه صفته أو ما قارب هذه الصفة، فقد تلاه حق تلاوته، ورعاه حق رعايته، فكان له القرآن شاهدا وشفيعا وأنيسا وحرزا).

ويكرر الحسن البصري وغيره التنبيه، إلى ضرورة الاتصال الوثيق، بين القراءة والتدبر والاتباع، محذرا من أن تكون القراءة المجردة هي الهدف النهائي، بحيث لا يصاحبها تفهم واتعاظ، ولا يقارنها عزم ونية، ولا يلحقها عمل وتنفيذ.

يقول الحسن: (نزل القرآن ليتدبر ويعمل به، فاتخذوا تلاوته عملا).[١]

ويقول العز بن عبد السلام: (استماع القرآن أدب: ثمرته فهم معانيه، والعمل بمواجبه).[٢]

(١) مدارج السالكين ١/٣٤٢.
(٢) شجرة المعارف ص ٣١٢.

ويقول أيضا: (إنما أنزل الله كتابه ليتأدب عباده بآدابه، ويتخلقوا بأخلاقه، ويتأملوا ما فيه من الثناء على الله، وما لم يتدبر ذلك حتى يفهم لا يمكن العمل به، فإنه رسائل أرسلها الله تعالى إلى عباده لينفذوها، لا لتقرأ عليهم فلا يفهموها ولا يقيموها).[١]

وهو مقصود وهيب بن الورد بقوله: (اجعل قراءتك القرآن علما، ولا تجعله عملا).[٢]

والمقصود توجيه قارئ القرآن، إلى أن يكون فهمه لما يقرأ من الآيات علما، يثمر بعد ذلك عملا بمضمون تلك الآيات من الخير والهداية، لا أن تكون القراءة هي العمل الذي يقف عنده، دون عزم على التطبيق، وإرادة للامتثال والتنفيذ.

وهو ما يعنيه الفضيل بن عياض بقوله: (إنما نزل القرآن ليعمل به، فاتخذ الناس قراءته عملا) قيل: كيف العمل به، قال: (أي: يحلوا حلاله، ويحرموا حرامه، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه، ويقفوا عند عجائبه).[٣]

وفي هذا المسار أيضا يقول ابن عطية: (قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ أي: علم معانيه والعمل به والقيام بحقوقه ثقيل، فمال الناس إلى الميسر، وتركوا الثقيل وهو

(١) شجرة المعارف ص ٨١.
(٢) سنن الدارمي ٢/٧٠٨.
(٣) اقتضاء العلم العمل ص ٧٦.

المطلوب منهم).[١]

ويؤيده ما رواه ابن جرير وغيره عن الحسن في معنى ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ قال: (العمل به، إن الرجل ليهذّ السورة، ولكن العمل به ثقيل).[٢]

وباجتماع القراءة والعمل، وباقتران الحفظ بالاتباع، يثبت للمؤمن الشرف، ويتحقق له علو المنزلة، وسمو المرتبة، وحسن العاقبة، برحمة من الله وفضل.

ومن ثم كان أبو عبد الرحمن السلمي، إذا ختم أحد تلاميذه القرآن عليه، أجلسه بين يديه، وقال له: (يا هذا، اتق الله، فما أعرف أن أحدا خير منك، إن عملت بالذي علمت).[٣]

(١) تفسير ابن عطية ١/٢٤.
(٢) تفسير الطبري ٢٩/١٢٧، وانظر: ٨/٣١٥.
(٣) التذكار ص ٥١، وانظر: تفسير القرطبي ١/٩٠٨.

المراجع

- الإبانة عن معاني القراءات، مكي بن أبي طالب، تحقيق عبد الفتاح شلبي، المكتبة الفيصلية.
- إبراز المعاني بالأداء القرآني، إبراهيم الدوسري، دار الحضارة.
- إبراز المعاني من حرز الأماني، أبو شامة الدمشقي، تحقيق إبراهيم عوض، مكتبة مصطفى.
- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد.
- أحكام القرآن، ابن العربي، تحقيق علي البجاوي، دار المعرفة.
- الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم، مكتبة عارف.
- إحياء علوم الدين، الغزالي، ضبط محمد بلطة، المكتبة العصرية.
- اختلاف المفسرين، سعود الفنيسان، دار إشبيليا.
- أخلاق العلماء، الآجري، دار الكتب العلمية.
- الآداب الشرعية، ابن مفلح، تحقيق الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة.
- الأذكار، النووي، المكتبة العصرية.
- الاستقامة، ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، دار ابن حزم.
- أضواء البيان، محمد الأمين، عالم الكتب.
- اعتقاد أهل السنة، اللالكائي، تحقيق أحمد حمدان، دار طيبة.
- إعجاز القرآن، الرافعي، المكتبة العصرية.
- إعراب القرآن، النحاس، تحقيق زهير زاهد، عالم الكتب.
- إغاثة اللهفان، ابن القيم، تحقيق علي الأثري، دار ابن الجوزي.

- اقتضاء العلم العمل، الخطيب البغدادي، تحقيق الألباني، المكتب الإسلامي.
- إملاء ما من به الرحمن، العكبري، مكتبة مصطفى البابي.
- الإيمان، ابن تيمية، المكتب الإسلامي.
- الإيمان، ابن منده، تحقيق علي الفقيهي، مؤسسة الرسالة.
- البحر المحيط، أبو حيان، دار الفكر.
- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، دار المعرفة.
- بصائر ذوي التمييز، الفيروز ابادي، تحقيق محمد النجار، المكتبة العلمية.
- بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني، البنا الساعاتي، دار إحياء التراث.
- تاج العروس، الزبيدي، تحقيق عبد الستار فرج، مطبعة حكومة الكويت.
- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، تحقيق أحمد صقر، مكتبة دار التراث.
- التبيان في آداب حملة القرآن، النووي، مكتبة نزار الباز.
- تحفة الأحوذي بشرح سنن الترمذي، محمد المباركفوري، تخريج عصام الصبابطي، دار الحديث.
- تحفة الذاكرين، الشوكاني، دار الكتب العلمية.
- التحفة العراقية في الأعمال القلبية، ابن تيمية، تحقيق يحيى الهنيدي،

مكتبة الرشد.

- التحفة القليبية في حل الألفاظ القرآنية، موسى القليبي، تحقيق محمد داود، مكتبة الآداب.
- التذكار في أفضل الأذكار، القرطبي، المكتبة العلمية.
- تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم، ابن جماعة، دار الكتب العلمية.
- ترتيب القاموس المحيط للفيروز ابادي، أحمد الزاوي، دار الفكر.
- الترغيب والترهيب، المنذري، مكتبة مصطفى البابي.
- التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الكلبي، دار الكتاب العربي.
- التعاريف، المناوي، تحقيق محمد رضوان، دار الفكر.
- التعريفات، الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي.
- تفسير البغوي: (معالم التنزيل)، تحقيق خالد العك وزميله، دار المعرفة.
- تفسير البيضاوي: (أنوار التنزيل)، دار الكتب العلمية.
- تفسير الجلالين، السيوطي والمحلي، دار الحديث.
- تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق أسعد الطيب، المكتبة العصرية.
- تفسير الثعالبي: (الجواهر الحسان)، مؤسسة الأعلمي.
- تفسير الزمخشري: (الكشاف)، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث.
- تفسير السعدي: (تيسير الكريم الرحمن)، دار المدني.
- تفسير أبي السعود: (إرشاد العقل السليم)، دار إحياء التراث.

- تفسير سفيان الثوري، دار الكتب العلمية.
- تفسير السمرقندي: (بحر العلوم)، تحقيق محمود مطرجي، دار الفكر.
- تفسير السمعاني: (تفسير القرآن العزيز)، تحقيق ياسر إبراهيم، دار الوطن.
- تفسير الطبري: (جامع البيان)، مكتبة البابي.
- تفسير ابن عاشور: (التحرير والتنوير)، الدار التونسية.
- تفسير عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق مصطفى مسلم، مكتبة الرشد.
- تفسير ابن عطية: (المحرر الوجيز)، تحقيق عبد الله الأنصاري وزميله.
- تفسير غريب القرآن، ابن قتيبة، تحقيق أحمد صقر، دار الكتب العلمية.
- تفسير الفخر الرازي: (مفاتيح الغيب، التفسير الكبير)، المطبعة البهية المصرية.
- تفسير القاسمي: (محاسن التأويل)، تصحيح محمد عبد الباقي، دار الفكر.
- تفسير القرطبي: (الجامع لأحكام القرآن)، دار الكتب العلمية.
- التفسير القيم لابن القيم، جمع محمد الندوي، تحقيق محمد الفقي، دار العلوم الحديثة.
- تفسير ابن كثير: (تفسير القرآن العظيم)، دار المعرفة.

- تفسير مجاهد، تحقيق عبد الرحمن الطاهر، دار المنشورات العلمية.
- تفسير المشكل من غريب القرآن، مكي بن أبي طالب، تحقيق علي البواب، مكتبة المعارف.
- تفسير المنار: (تفسير القرآن الحكيم)، محمد رشيد رضا، دار المعرفة.
- تفسير النسفي: (مدارك التنزيل)، دار الكتاب العربي.
- تفسير الواحدي، تحقيق صفوان داودي، دار القلم.
- التمهيد في علم التجويد، ابن الجزري، مؤسسة الرسالة.
- تنبيه الغافلين، السمرقندي، تحقيق عبد العزيز الوكيل، دار الشروق.
- تهذيب اللغة، الأزهري، دار الكاتب العربي.
- التهذيب الموضوعي لحلية الأولياء لأبي نعيم، محمد الهبدان، دار طيبة.
- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، السعدي، ط الشؤون الإسلامية.
- الجامع الصغير، السيوطي، دار المعرفة.
- جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة.
- الجامع لشعب الإيمان، البيهقي، تحقيق عبد العلي حامد، الدار السلفية.
- جمال القراء وكمال الإقراء، السخاوي، تحقيق علي البواب، مكتبة التراث.

- جمهرة اللغة، ابن دريد، مؤسسة الحلبي.
- حاشية السندي على سنن النسائي، دار سحنون.
- حجة القراءات، ابن زنجلة، تحقيق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة.
- حلية الأولياء. أبو نعيم، دار الكتاب العربي.
- الدر المنثور، السيوطي، دار الفكر.
- الرسالة القشيرية، أبو القاسم القشيري، تحقيق هاني الحاج، المكتبة التوفيقية.
- الروح، ابن القيم، تحقيق محمد العطار، دار الفكر.
- روح المعاني، الألوسي، دار الفكر.
- رياض الصالحين (بشرح نزهة المتقين)، النووي، مؤسسة الرسالة.
- رياضة النفس، الحكيم الترمذي، دار الكتب العلمية.
- زاد المسير، ابن الجوزي، تحقيق محمد عبد الرحمن، دار الفكر.
- زاد المعاد، ابن القيم، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة.
- الزهد، أحمد بن حنبل، مكتبة الصفا.
- الزهد والرقائق، عبد الله بن المبارك، دار ابن حزم.
- السبعة في القراءات، ابن مجاهد، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، مكتبة المعارف.
- سنن الترمذي، دار سحنون.

- سنن الدارمي، دار سحنون.
- سنن أبي داود، دار سحنون.
- سنن ابن ماجة، تحقيق محمد عبد الباقي، دار الكتب.
- سنن النسائي، دار سحنون.
- سير أعلام النبلاء، الذهبي، ترتيب حسان عبد المنان، بيت الأفكار.
- شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال، العز بن عبد السلام، بيت الأفكار.
- شرح الأربعين النووية، ابن دقيق العيد، مؤسسة دار العلوم.
- شرح أصول في التفسير، محمد العثيمين، تحقيق صلاح السعيد، دار الغد الجديد.
- شرح السنة، البغوي، تحقيق شعيب الأرنؤوط وزميله، المكتب الإسلامي.
- شرح السيوطي لسنن النسائي، دار سحنون.
- شرح القصيدة النونية، محمد خليل هراس، دار الباز.
- شرح المقدمة الجزرية، زكريا الأنصاري، دار الرشاد.
- شرح النووي على صحيح مسلم، دار إحياء التراث.
- شفاء العليل، ابن القيم، تحقيق محمد سيد، دار الحديث.
- الشمائل المحمدية، الترمذي، تحقيق عبد المجيد الحلبي، دار المعرفة.
- صحيح البخاري، ضبط مصطفى البغا، دار ابن كثير.
- صحيح جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، اختصار الزهيري،

مكتبة ابن تيمية.

- الصحيح في فضائل القرآن، فاروق حمادة، دار القلم.
- صحيح مسلم، تحقيق محمد عبد الباقي، دار سحنون.
- صفة الصفوة، ابن الجوزي، تحقيق محمود فاخوري، دار المعرفة.
- عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق، تحقيق عصام الصبابطي، دار الحديث.
- غريب القرآن، السجستاني، تحقيق محمد أديب، دار قتيبة.
- غريب القرآن، اليزيدي، تحقيق محمد الحاج، عالم الكتب.
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري.
- الفائق في غريب الحديث، الزمخشري، تحقيق علي البجاوي وزميله، دار المعرفة.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مكتبة الكليات الأزهرية.
- الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، أحمد البنا، دار إحياء التراث.
- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، أبو يحى زكريا الأنصاري، تحقيق محمد الصابوني، المكتبة العصرية.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني، مكتبة البابي.
- فتح المجيد في حكم القراءة بالتغني والتجويد، سعود الفنيسان،

دار ابن الجوزي.

- فضائل القرآن، أبو عبيد القاسم بن سلام، اعتنى به عدنان العلي، المكتبة العصرية.
- فضائل القرآن، ابن كثير، دار المعرفة.
- فضائل القرآن، النسائي، تحقيق فاروق حمادة، دار إحياء العلوم.
- فن التدبر في القرآن الكريم، عصام العويد، مركز التدبر.
- الفوائد، ابن القيم، تحقيق محمد الفاضلي، المكتبة العصرية.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار العلم.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي، دار المعرفة.
- القواعد الحسان لتفسير القرآن، السعدي، مكتبة الرشد.
- لسان العرب، ابن منظور، تحقيق عبد الله بن علي، دار المعارف.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي، تحقيق عبد الله الدرويش (بغية الرائد)، دار الفكر.
- مجموع الفتاوى، ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم، مكتبة المعارف.
- مختصر منهاج القاصدين، أحمد المقدسي، مكتبة دار البيان.
- مدارج السالكين في شرح منازل السائرين للهروي، ابن القيم، تحقيق الداني آل زهوي، المكتبة العصرية
- المستدرك على الصحيحين، الحاكم، تحقيق مصطفى عطا، دار الكتب العلمية.

- مشكاة المصابيح، الخطيب التبريزي، تحقيق الألباني، المكتب الإسلامي.
- المشوف المعلم في ترتيب الإصلاح على حروف المعجم، العكبري، تحقيق ياسين السواس، دار الفكر.
- المصباح المنير، أحمد الفيومي الحموي، دار الغد الجديد.
- مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق محمد عوامة، دار القبلة.
- معالم السنن، الخطابي، تحقيق أحمد شاكر، دار المعرفة.
- معاني القرآن، الفراء، عالم الكتب.
- معاني القرآن الكريم، النحاس، تحقيق محمد الصابوني، مركز إحياء التراث.
- معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، تحقيق عبد الجليل شلبي، عالم الكتب.
- المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، زين الدين العراقي.
- مفتاح دار السعادة، ابن القيم، تحقيق محمد عيسى، دار الغد الجديد.
- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد عيتاني، دار المعرفة.
- مقاييس اللغة، ابن فارس، دار إحياء التراث.
- مقدمة التفسير، ابن تيمية، بشرح ابن عثيمين، دار الغد الجديد.
- المنافقون في القرآن الكريم، عبد العزيز الحميدي، دار المجتمع.

- مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني، دار إحياء الكتب.
- الموافقات، الشاطبي، دار المعرفة.
- المواهب اللدنية، القسطلاني، المكتبة التوفيقية.
- موسوعة الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، محمد عيسى، دار الغد الجديد.
- الموطأ، الإمام مالك، دار سحنون.
- النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، دار الكتب العلمية.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، دار الكتب.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، تحقيق محمود الطناحي، دار الفكر.
- النهر الماد، أبو حيان، دار الفكر.
- هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، عبد الفتاح المرصفي، ط بن لادن.
- الوابل الصيب، ابن القيم، تحقيق إياد القيسي، مكتبة الرشد.

الفهرس

الموضوع	صفحة
تمهيد: الفرح بالقرآن	٥
الفصل الأول: التلاوة	١٣
المعاني اللغوية للفظ التلاوة	١٥
لفظ التلاوة في القرآن الكريم	١٩
المبحث الأول: التلاوة بمعنى القراءة	٢١
المبحث الثاني: التلاوة بمعنى القصص والإخبار	٢٥
المبحث الثالث: التلاوة بمعنى الاتباع	٣١
الآية الأولى: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾	٣١
الآية الثانية: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ ..	٣٤
الآية الثالثة: ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ﴾	٣٤
الآية الرابعة: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾	٣٦
الآية الخامسة: ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ ..	٣٨
الآية السادسة: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ﴾	٤٠
الآية السابعة: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾	٤١

الموضوع	صفحة
الآية الثامنة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾	٤٥
المبحث الرابع: حق التلاوة ﴿ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾	٤٨
الفصل الثاني: الترتيل	٦٣
الترتيل في كلام أهل اللغة	٦٥
لفظ الترتيل في القرآن الكريم	٦٦
الآية الأولى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴾	٦٦
مما يتصل بهذا المعنى: ﴿ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ ﴾	٧٠
الآية الثانية: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴾	٧٢
القول الأول	٧٢
القول الثاني	٧٤
القول الثالث	٧٦
مظاهر الترتيل في الواقع القرآني	٧٨
الفصل الثالث: التدبر	٧٩
بيان المراد بالتدبر	٨١
لفظ التدبر في القرآن الكريم	٨٢
الآية الأولى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾	٨٢
الآية الثانية: ﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ ﴾	٨٣

الموضوع	صفحة
الآية الثالثة: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ ...	٨٤
الآية الرابعة: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾	٨٥
من الآيات المشتملة على ذم الإعراض عن الكتاب العزيز ..	٨٨
من الآيات المقاربة لآيات التدبر	٨٩
أقوال أهل التفسير في معنى (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)	٩٠
الفصل الرابع: العلاقة الإيمانية بين التلاوة والترتيل والتدبر	٩٥
المبحث الأول: تلاوة اللفظ القرآني عبادة	٩٨
الحسنات وكثرتها ومضاعفتها	٩٨
المتاع الأعظم	٩٩
الشفاعة يوم القيامة	١٠٠
الشرف والمنزلة الفضلى والكرامة والمرتبة العلية	١٠٠
اقتران الماهرين بالملائكة الأبرار وزيادة الأجر في حال المشقة ..	١٠٢
المثل الأطيب	١٠٣
حصول الطمأنينة وتغشي الرحمة واحتفاء الملائكة وثناء الرب جل شأنه	١٠٣
رجاء الرحمة بالإنصات إلى القرآن	١٠٤
تلاوة القرآن في مجالس الصحابة الكرام رضي الله عنهم	١٠٤

الموضوع	صفحة
المبحث الثاني: الترتيل وصف للتلاوة	١٠٦
ترتيل الرسول ﷺ للقرآن	١٠٦
دعوة الرسول ﷺ إلى تلقي القرآن عن أهل الإتقان	١٠٨
اهتمام الصحابة ﷺ بتحقيق وصف الترتيل	١٠٩
من كلام أهل العلم في استحباب الترتيل	١١١
تحقيق هذه الصفة يقتضي الاعتناء بتعلم القراءة الصحيحة المرتلة	١١٢
مما يتعلق بوصف الترتيل: تزيين الصوت وتحسينه	١١٥
من الأحاديث في هذا الباب وكلام أهل العلم في مرادها	١١٥
فصل النزاع في مسألة التلحين في قراءة القرآن	١٢١
الترتيل وتزيين الصوت مقيد بعدم الغلو وتجاوز المقصود الشرعي	١٢٢
وصف الرسول ﷺ بالترتيل وحسن الصوت	١٢٧
وصف بعض الصحابة ﷺ بحسن الصوت بالقرآن	١٢٨
المبحث الثالث: التدبر مطلوب ومقصد	١٣٠
كلام أهل العلم في أهمية التدبر	١٣٠
لم تكن الحكمة من إنزال القرآن مجرد القراءة	١٣٢
فهم القرآن طريق إلى زيادة الإيمان	١٣٢
قراءة الألفاظ يشترك فيها المؤمن والمنافق	١٣٣
التذكر ثمرة التدبر	١٣٣
من نعم الله تعالى على المؤمنين اقتران التلاوة بالتعليم والتزكية.	١٣٤

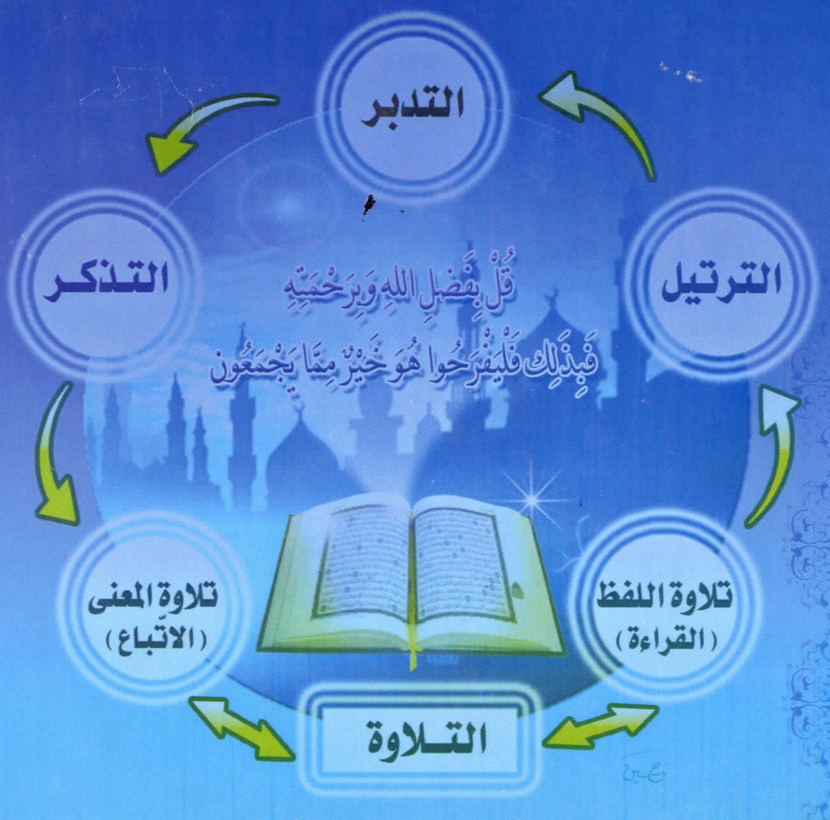
الموضوع	صفحة
التدبر أدب يصاحب قارئ القرآن	١٣٦
التأثر بمعاني القرآن سنة نبوية	١٣٧
ترجمان الخشوع في القلب	١٣٩
الإخبات للقرآن إحدى ثمرات التدبر	١٤١
أثر القرآن في قلوب المؤمنين	١٤٢
علاقة المعادين للإسلام بالقرآن	١٤٤
تلقي الصحابة ﷺ للقرآن بغرض العلم والعمل	١٤٧
تدبر القرآن سبيل إلى عظم الفضل وعلو المنزلة	١٤٩
كراهية سرعة القراءة المانعة من التدبر	١٥١
من وصايا الصحابة والتابعين في العناية بالتدبر والتذكر	١٥٣
المبالغة في شأن الترتيل تحجب القارئ عن التدبر والتأمل	١٥٩
من الوسائل المعينة على حسن التدبر	١٦٠
المبحث الرابع: تلاوة المعنى هي الغاية	١٦٢
الثمرة الكبرى تلاوة القرآن بمعنى اتباعه	١٦٢
التزكية مقترنة بالتعليم في مهمة الرسالة النبوية	١٦٣
التربية مقصودة شرعا	١٦٥
التقوى غرض النزول القرآني	١٦٧
أخذ الكتاب بقوة	١٦٨
التحذير القرآني من الإعراض عن كلام الله جل وعلا	١٧١
اتباع القرآن سبيل زيادة الإيمان	١٧٢

الموضوع	صفحة

الاتباع قيد في شفاعة القرآن	١٧٣
من عبارات السلف في هذا الباب	١٧٤
أحاديث وآثار في الاتصال الوثيق بين القراءة والعمل	١٧٦
القراءة المجردة أمر مشترك بين التقي والفاجر والمخلص والمرائي	١٨٠
الدعوة إلى التعلق بالثواب الأخروي في العلاقة بالقرآن	١٨٤
التحذير من مشابهة أهل الكتاب في التناقض بين القراءة والسلوك	١٨٨
أنواع هجر القرآن	١٩٦
المثال العملي للمنهج القرآني: رسول الله ﷺ	١٩٧
الصحابة ﷺ جمعوا بين الإيمان والقرآن	١٩٧
حفظ القرآن يشمل الحروف والحدود	٢٠١
باجتماع القراءة والاتباع تحسن العاقبة ويتحقق المراد	٢٠٥
المراجع	٢٠٦
الفهرس	٢١٧

طريقك إلى الاستمتاع بالقرآن

(دراسة موضوعية لألفاظ التلاوة والتدبر والترتيل في الكتاب العزيز)



د. عبد الرحمن بن محمد البرادعي

قسم الدراسات القرآنية بجامعة أم القرى / كلية المعلمين (سابقًا)

الناشر

دار طيبة الخضراء

مكة المكرمة — الرياض

٠٥٤٤٥٩٩١٠٠

٠٥٠٤٥١٢٤٤٧

